الاثر الاقتصادي في الحياة السياسية في العصر العباسي الاول

(١٣٢ هـ - ٢٣٢ هـ)

الدكتور

ناجي حسن

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد

كلية الاداب - جامعة بغداد

مكنت التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت دولة بني أمية بعامة، ومناطق العراق وخراسان بخاصة، قادة الثورة العباسية ودعاتها من تحقيق غاياتهم، وبلوغ اهدافهم، باسقاط دولة الأمويين لتحل محلها دولة العدل والمساواة يتولى قيادتها الرضا من آل البيت، كما ادعت شعاراتهم التي رفعوها وتنادوا بها، وحشدوا الجماهير حولها، وهكذا انتقل الملك لبني العباس بعد تنظيم محكم رفيع، وجهد متقن صفيق قل نظيره في تاريخ الحركات السرية في الإسلام[1].

وبوصول القوات الخراسانية إلى الكوفة، وانتصارهم في وقعة الزاب، ومقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم الإجهاز نهائيا على ما تبقى من دولة بني أمية، وأعلن قيام دولة بني العباس، وتولى قيادتها ابو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ) أول خلفائهم في دولتهم الجديدة، وتحولت الإمامة التي نادى بها دعاة الثورة العباسية ونقباءوها إلى خلافة، وحل الرضا من آل العباس محل الرضا من آل البيت.

وخلافا لدعوى العدل والمساواة التي بشرت بها الثورة، ونادى بها قادتها،

فان العباسيين نهجوا طريقا ثانيا عن دعوتهم . قاصيا عن أماني الامة وتطلعها بتسلطهم على مقدراتها . والتحكم في أموالها ومواردها . وغدت الامور تجري حسب أهوائهم . وتبعا لمصالحهم . متخذين سطوة الخلافة وهيبتها عضدا . وخزانة بيت المال وأموالها سندا لتثبيت سلطانهم. وتوطيد لحكمهم. والتفاف أصحاب المباخر. ووعاظ السلاطين حولهم .

وسرعان ما ظهرت مرامي العائلة العباسية . البعيدة . واهدافهم الواسعة العريضة . وفي مقدماتها الانقضاض على قادة الثورة ودعاتها . والعمل على اقصاء العناصر الفاعلة التي ضحت خلال أطوارها السرية والعلنية . وحل محلهم الناس لا عهد لهم بالثورة وتنظيمها ، وكل ما يؤهلهم لتولي الأمور انتمائهم إلى البيت العباسي الحاكم . أو من دخل منهم على سبيل الولاء لهذا البيت[٢] .

فما إن استقامت الدولة لأبي العباس السفاح حتى ((وجه عمه عيسى بن علي على فارس . ثم أتبعه بعد ذلك باسماعيل بن علي . ووجه اخاه ابا جعفر واليا على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية. ووجه أخاه يحيى بن محمد بن علي واليا على الموصل. وولى عمه داود ابن علي على الكوفة وسوادها . وعزل عنها ليتولى المدينة ومكة واليمن واليمامة . وتولى عمه سليمان بن علي ولاية البصرة واعمالها وكور دجلة والبحرين وعمان ومهر جانقذق . وتولى عمه اسماعيل بن علي كور الاهواز))[٣] .

ولم يكتف العباسيون بتولي الأعمام مناصب الدولة . والاستحواذ على مؤسساتها . بل أمتد إلى الاخوال إن لم يجدوا عما تشغل وظائفها . فما إن توفي عمه داود أبن علي . وبلغت وفاته ابا العباس حتى وجه على المدينة ومكة والطائف واليمامة خاله زياد بن عبيد الله بن عبد المدان))[٤] .

احكمت السلطة العباسية سطوتها بعنف من دون شفقة ورحمة . ولم تأخذهم احيانا بالناس الا ولا ذمة . يشدهم سلطان الدين ودعوة القربى من النبي (ص) تارة . وهبات بيت المال وعطاياه . تارة اخرى . وتجلى ذلك في اول خطبة لابي العباس

استهل بها عهده ((الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة . وشرفه وعظمه ، واختاره لنا . وايده بنا . وخصنا برحم رسول الله (ص) وقرابته . واوجب حقنا ، واجزل من الفي والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا وفضلا علينا)) (٥) .

فلا عجب إن اصبح المال بغية الخلافة ومطلبها ، ورجاء الخلفاء واملهم . واضحت الاموال الطائلة التي تمتعت بها الدولة الجديدة وما ورثته من تركة خلفها الامويون وصفاياهم ملكا خالصا للعائلة العباسية تمرح به كيف تشاء . وتعطيه من تشاء وتمنعة عمن تشاء . من دون مشاركة من احد سوى ما يمنحه أو يجود به على القوم زعماء العائلة وافرادها وهو ما بشر به ابو العباس السفاح مؤيديه وانصاره وخص منهم اهل الكوفة رغبه منه في كسب ودهم . وضمان ولائهم ((اتاكم الله بدولتنا . فانتم اسعد الناس لنا ، واكرمه علينا ، وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المبير)) (٦) .

إن بغية الكوفيين ومنتهى امالهم إن ينالوا بعضا من نصيبهم في العهد الجديد جراء حرمان قاس طويل ارهق حياتهم ، وانهك قواهم طيلة عهد الامويين. فصادفت تلك الاماني هوى لانظير له الدى العباسيين الذين حذقوا تسيس المال لمصلحتهم. فهم يفرقون حين يصيب الاغداق في مصالحهم . بل يسرفون إن كان السرف سبيلا لنيل ما يريدون .

ويستشف من رواية الطبري إن العباسيين اظهروا حرصا شديدا . واهتماما بالغا بجمع المال واكتنازة لضمان دولتهم وثبات مؤسساتها ، فلم يدعوا لغريب فيض مال الا قطعوه . ولا فسحة من نوال الا سدوها . فصارت الأمور تجري بين ايديهم ، وحسب اهوائهم .

فهذا ابو العباس السفاح يبعث اخاه ابا جعفر مراقبا ومحاسبا للمال الذي حصل عليه الحسن بن قحطبه قائد الجيش العباسي . وبطل المعارك التي خاضها الثورة ضد اعدائها . والسيف الذي اوصل العباسيين للسلطة . وحين احتج على

سلوك شائن معيب . وشك غير متوقع لاخلاقة واخلاصه . وصله كتاب تزلف واعتذار ((إن العسكر عسكرك . والقواد قوادك . ولكن احببت إن يكون اخي حاضرا)) (٧) وهي حجة واهية . وعذر اقبح من فعل لم تكن تنطلي على قائد حصيف . ورجل نابه خبر المكر السياسي وعرف الاعيبه . فاضمر حقدا على مضض .

وكتب ابو العباس إلى ابي نصر مالك بن الهيثم بمثل ماكتب إلى الحسن بن قحطبة . وهو من رجال التنظيم الأول للدعوة . ورجل الثورة المميز في خراسان(٨) .

وهكذا اخذ الفكر الثوري الذي قاد الثورة العباسيه وعمل على نجاحها يخبو حين انتابت الشكوك قادة الثورة ودعاتها في نوايا العباسيي وتطلعاتهم . فغسلوا ايديهم من زعامة بني العباس وعدل دولتهم .

لم يشهد عهد ابي العباس مشاكل سياسية واضحة . ولاتعرض البيت العباس لخطر يذكر . فصدى الاحداث المناوئه للوضع الجديد لم تكن ذات اثر فعال في هذه الحقبة من تاريخ الدولة العباسية . فما زالت الثورة ومبادئها تتفاعل مع الاحداث السياسية القائمة بشكل اخفت جميع التناقضات التي عمت المجتمع الاسلامي. ولاسيما وان سقوط الدولة الاموية لم يكن عملا هينا ، ولا امرا سهلا لدولة فرضت سلطانها على مساحات واسعة امتدت من الصين شرقا وسواحل الاطلسي من جهة الغرب . وانضمت تحت لوائها امم متباينة . واجناس مختلفة . وقوميات متعددة .

إن دوي الصدمة للثورة العباسية وشدتها لم يحسب الامويون حسابها . ولا قدروا نتائجها . وظنوا الامر لايعدو حدثا عابرا . أو عصيانا اعتادت عليه دمشق في ولاياتها الثائرة . يسهل القضاء عليه بجملة يتولاها امراء البيت الحاكم . أو تعهد قيادتها لاحد قادتهم . كثورة عبد الرحمن ابن الاشعث (٨٣هـ) . وثورة ال المهلب (١٠٢هـ) وثورة زيد بن علي (١٢٠هـ) وكلها اندلعت في العراق المجاور لبلاد الشام ولم يصل مداها حتى الحدود . فما بالك ببلاد خراسان تلك المناطق الواسعة البعيدة عن دمشق(٩) .

لم تكن خلافة ابي العباس كافية لظهور التناقضات الاقتصادية والاجتماعية في العهد الجديد ومشاكلها لقصر عهده . وفورة الاحداث السياسية التي زخر بها المجتمع الاسلامي التي الهت الجماهير عن التطلع لما حولها نتيجة لما اصابها في عهد الامويين .

ولانغفل الموقف اللين . والأسلوب الهادوء الذي سلكه العباسيون تجاه العلويين في هذه الحقبة الحرجة من قيام دولتهم . وهو دليل حنكة سياسية تتمتع بها ابناء البيت العباسي . حتى إن داود بن علي عم الخليفة المنصب يعلن في اول خطبة له بعد تنصيب ابي العباس السفاح خليفة للمسلمين : ((ايها الناس . انه والله ما كان بينكم وبين رسول الله (ص) خليفة ألا علي بن أبي طالب . وأمير المؤمنين هذا الذي خلفي))[١٠] وهو ترضية للعلويين وكسب ثقتهم . وتقربا لشيعتهم في الكوفة . ونيل ودهم ورضاهم .

هذه العوامل وغيرها ميزت عهد ابي العباس وما صحبه من هدوء ظاهر . ناهيك عن سياسته المالية الرشيدة التي أسهمت في توزيع الثروة . وسلكت نهج الترضية تجاه الجماعات التي ساهمت في الثورة العباسية . وعملت على نجاحها .

والروايات التاريخية كعادتها . بالغت فيما حصل عليه العباسيون من اموال طائلة في عهد ابي العباس وما تبع ذلك من رفاهية وترف اقتصادي واجتماعي كبيرين . فالطبري في روايته عن علي بن محمد يذكر ((إن عبد الله بن علي كتب إلى امير المؤمنين ابي العباس بالفتح فيه سلاحا كثيرا واموالا . فلما اتى ابا العباس كتاب عبد الله بن علي امر لمن شهد الواقعة بخمسمائة. ورفع ارزاقهم إلى ثمانين))[١١] وهي سياسة بارعة ذكية قصد بها ضمان ولاء الجند وقادتهم. وربطهم بالسلطه السياسية .

ادرك قادة الثورة العباسية وزعماؤها فضل المال ودوره الكبير في قيد الدول. ورسوخ قواعدها. وثبات مؤسساتها. منذ الايام الأولى لنجاح الثورة في مناطق خراسان . وهذا يدعونا بالعودة إلى الوراء لاستعراض الخطوات المالية التي صاحبت

الثورة العباسية في تلك المناطق .

والذي نخرج به من روايات الطبري إن ابا مسلم الخرساني وجه عماله الى النواحي والاقاليم حين تمت الهيمنة على خراسان سنة ١٣٠هـ . فكان سباع بن النعمان الازدي على سمرقند . وخالد بن ابراهيم الشيباني على طخارستان . ومحمد بن الاشعث الخزاعي على الطبسين وفارس . وكانت وجهة قحطبة بن شبيب الطائي طوس)) [١٢] مصطحبين معهم عمال الدواوين ومساعيهم . وفي رواية الجهشياري ((إن ابا مسلم قلد كتابة الدواوين . وبيت المال ابا صالح كامل بن مظفر . وجعل كتابة الرسائل لاسلم بن صبيح)) [١٣] وسلك قحطبة بن شبيب النهج ذاته في مناطق خراسان الغربية اذ تولى خالد بن برمك ، وكان في عسكره مسؤولية الخراج في كل كورة افتتحها ومسؤولية الغنائم وقسمتها بين الجند واحصاء غنائمها [١٤]

وتعد غنائم اصبهان افضل ما حصل عليه قحطبة بن شبيب سنة ١٣١هـ بهزيمة عامر بن ضبارة وجنده وكان يزيد بن هبيرة والي الامويين بواسط بعثهم مددا لخراسان . وفي رواية حفص بن شبيب قال : حدثني من شهد الواقعة قال : ((ما رايت عسكرا قط جمع ما جمع اهل الشام باصبهان من الخيل والسلاح والرقيق كاننا افتتحنا مدينة واصبنا معهم مالا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير . وقل بيت أو خباء ندخله الا أصبنا فيه زكرة أو وعاء من الخمر)) [١٥]

من كل هذا يظهر مدى الجهد الذي بذله قادة الثورة ورجالها . وسعيهم الحثيث لايلاء العامل الاقتصادي اهمية بالغة فاقت ما سواها ، حاشا الجهد العسكري الذي وقعت على عاتقه مهمة القضاء على تحشد الجند الشامي المتمركز في خراسان. ولم يغفل اولئك القادة التذمر الاجتماعي والاقتصادي الذي مثل القوة المحركة والدافعة للثورة على الحكم الاموي . ومع هذا فان البيعة للجماهير الخراسانية لم تلزم قادة الوضع الجديد بالتزامات اقتصادية، وهو سر النجاح لزعامة الثورة العباسية من التوفيق بين امكانات بسيطة متواضعة امتلكتها. واوضاع سائدة ليس بالمستطاع التغلب عليها. ففي رواية الطبري ((إن ابا مسلم الخراساني دخل مرو على راس

الهاشمية . وهم نواة جيش خراسان . ومن الهاشمية امر إن تؤخذ البيعة بعد دخوله . وكان الذي ياخذ البيعة طلحة بن زريق احد كبار النقباء في الدعوة العباسية وقادتها ((ابايعكم على كتاب الله عز وجل . وسنة نبيه (ص) وعلى إن لاتسالوا رزقا ولا طمعا حتى يبداكم به ولاتكم)) [١٦].

وبنهاية الجهد العسكري . وهرب فلول الجند الاموي من خراسان سقطت كور المنطقة ورساتيقها ، واصبح ابو مسلم الخراساني سيد المشرق . وقائد جند الثورة ، ورجل الدولة المميز . تسير دفة الأمور بمشيئته ، ويروح كل شي ويغدو بامره واضعا نصب عينيه مشاكل الوضع الاقتصادي والمالي في هذه الاماكن . وخص جنده من الخراسانية الذين قام على اكتافهم ملك بني العباس ودولتهم . فاتخذ لهذا الجند ((ديوانا لكي يطمئن جنده على ارزاقهم ،فامر إن يقيد كل جندي بحسب اسم ابيه بين ثلاثة واربعة دراهم)) [١٧] .

صحب النظام المالي والاقتصادي القيادات العسكرية ومؤسساتها في خراسان. واصطحب القادة العسكريون شخصيات مدنية ذات باع طويل في التنظيم الاداري والمالي . وكان خالد بن برمك في صحبة القائد قحطبة ابن شبيب يتولى خراج المناطق المفتوحة ، وفي خطوة لاسابقة لها عمل على تقسيط الخراج على اهلها غايتها التسهيل عليهم وتخفيف الاعباء المالية عنهم لما لحقهم من ظلم واجحاف نتيجة لسياسة الامويين المالية في تلك المناطق ، فكان خالد بن برمك في رواية الجهشياري ((يتولى خراج كل ما فتحه قحطبة. فقسط الخراج فاحسن منه لاهله))[١٨] ولما كانت الارض وغلالها مصدرا لرفاه الامة وضمان عيشها ، ادركنا تاييد الجماهير الخراسانية للثورة ودعمها ، والانحياز إلى جانب قادتها .

يعد ابو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ) المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس. ورجل المؤسسات فيها والمؤسس الباني لعاصمة ملكهم . وهو على عادة الخلفاء والامراء والحكام في دولة الإسلام ، استهل عهده بخطبة بين فيها نهجا سياسيا جديدا. واتجاها ماليا واقتصاديا فريدا . لم يعرفه الإسلام من قبل . ولا انتهجه

احد من قادته وحكامه وذلك قوله : ((ايها الناس، انما انا سلطان الله في ارضه ، اسوكم بتوفيقه وتاييده وتسديده. وحارسه على ماله، اعمل فيه بمشيئته وارادته ، واعطيه باذنه. فقد جعلني الله عليه قفلا. إن شاء إن يفتحني فتحني لاعطائكم ، وقسم ارزاقكم ، وان شاء إن يقفلني عليها اقفلني فارغبوا إلى الله وسلوه إن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم))(١٩) .

خطاب واضح بين لالبس فيه . ولا غموض يدفعه أو يخفيه ، وتتضح خلاله عقلية الرجل الذي يتولى السلطة السياسية في مملكة الإسلام ، ويظهر طبيعة تفكيره وملامح الاتجاه السياسي القادم واسلوب تطبيقه وعرضه . ناهيك عن نهج اقتصادي ومالي غدا محور سياسته . وعليه تدور قيم الدولة واخلاقها ، من استقام لنا ورضي بحكمنا وسلطاننا فتحت له ابواب خزائننا. ونال ما يتمنى من اموالنا ، ومن ادار ظهره لنا وخالفنا فليرجع خالي الوفاض من نوالنا . صفر اليدين من اعطياتنا ، وليته اكتفى بحق كهذا، بل تعدى لما هو أدهى وأمر، حين أعطى لنفسه حقا الهيا لايطاله احد سواه، يمنح من يشاء، ويمنع عمن يشاء، وهو حدث لم يعهد في دولة الراشدين ، ولا عرفه الأمويون ، ولم يشر إليه حاكم منهم . ولا أمير من أمرائهم لاهمسا ولا علنا ، تحديا للأمة واستهتارا بحقوقها . ولم يجعل الله على الناس أحدا وكيلا .

والذي عرف عن المنصور انه كان خبيرا بأحوال الناس عارفا بنفوسهم ، ملما بساسة الملك . قضى ردحاً من الزمن عاملا لبني أمية في ولاياتهم(٢٠) . ((وهو من الحزم وصواب الرأي وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف)) (٢١) . حكم دولة واسعة الأرجاء كبيرة الأصقاع ، ساسها لمصلحته ومنافع أهله وعشيرته ، وذلك قوله لأهل بيته : ((أني لأجهل موضعي حتى احذر منكم لأنه ما فيكم الأعم وأخ وابن عم وابن أخ ، فانا أراعيكم ببصري ، واهتم بكم بنفسي فالله الله في أنفسكم فصونوها وفي أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والا إسراف فيدهشك إن تصيروا من ولد ولدي إلى من لايعرف الرجل حتى يقول له : من انت)) (٢٢) .

ومصداقا لهذا القول ، ورغبة في هيمنة العائلة العباسية على مقاليد السلطة،

واحتواء مؤسساتها وتبادل منافعها بين اهل البيت الواحد . عمد المنصور الى توزيع مناصبها على اعمامه والمقربين ((فولى اسماعيل ابن علي فارس، وسليمان بن علي البصرة، وعيسى ابن موسى الكوفة، وصالح بن علي قنسرين والعواصم، والعباس بن محمد الجزيرة . وعبد الله بن صالح حمص ، والفضل بن صالح دمشق . ومحمد بن ابراهيم الاردن . وعبد الوهاب بن ابراهيم فلسطين، والسري بن عبد الله لبن تمام بن العباس مكة . وجعفر بن سليمان بن عبد الله ويحيى بن محمد الموصل . ثم صرفه وولى ابنه جعفر))[٢٣] وفي رواية المسعودي انه اعطى عمومته وهم عشرة في يوم واحد عشرة الاف درهم[٢٤] .

والمتتبع لعهد المنصور وعصره تذهله اوضاع اقتصادية ومالية مزرية عمت المجتمع الاسلامي متمثله في فقر مدقع لحق الاعم الاغلب من الناس . وغنى فاحش تمتعت به الطبقة المترفة صاحبة الخطوة والجاه ، وضاع التوزيع القائم على العدل والمساواة للثورة ، ولاعرف الحاكمون حق الرعية عليهم . وما صور البذخ والاسراف التي تمدنا النصوص بها الا مشاهد صارخة على استهتار الطبقة الحاكمه ومن يلوذ بها ، ويعيش على موائدها ، ويسبح بما وهبته وانعمت عليه بحمدها .

إن ما شاع بين الناس وتناولته الروايات والنصوص من بخل وتقتير وسم به المنصور جراء سياسة مالية قاسية ، ونهج اقتصادي بغيض أكسبه خلالــه لقبــه المعروف " أبي الدوانيق "[٢٥] لم يلغ بذخا تمتعت بـه الخاصة . ولا قلل اسرافا مارسته الخلافة من اجل اغراضها ، وتتعدد الروايات وتكثر بتعدد الاحداث وكثرتها . وان حاول المسعودي التخفيف من شأنها والتلطيف من وقعها بقوله : ((كان المنصور يعطي الجزيل والخطير ما كان عطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ما كان عطاؤه تضيعا))[٢٦] .فقد انفق على مدينة المدورة ((اربعة الاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما))[٢٧] وهو لاريب رقم كبير قياسا برزق العمال والكتاب الذين لم يزد ما يتقاضاه كل واحد منهم على ثلثمائه درهم في الشهر ، ادركنا مظاهر السرف والوان البذخ لبناء حصن يحمي الخليفة واهل بيته وحاشيته ومن يلوذ بهم

من رجاله وقادة جيشه[٢٨] .

وكانت هبات المنصور وهداياه تفوق الوصف . وتبعث على الدهش ، وتنفي سبيل ((الدونقه)) عنه ففي رواية الطبري ((إن ابا جعفر كسا عيسى ابن موسى وغيره من ولده كسوة بقيمة الف الف درهم)) [٢٩]، واعطى عشرة آلاف الف درهم وثلثمائة الف بين ولدي فلان وفلان سماهم، وسبعمائه الف لفلانة امراة من نسائه))[٣٠] واقطع جواريه القطائع الواسعة ، فكانت قطائع ((ريسانه)) تمتد غرب في مناطق الرصافة، وهي المعروفة بقطائع ((ريسانة)) [٣١] واخرى الى جاريته ((هيلانة)) وهي المعروفة باسمها في باب المحول[٣٢] .

ونخلص من رواية الجهشياري إلى اسراف في التوزيع وتبديد الثروة الامة مارسها المنصور بشكل لم يعهد من قبل في دولة الإسلام، ولا عرفه الحاكمون في دولة الامويين وسلطانهم ، فهو يشتري تنازل عيسى بن موسى من ولاية العهد لابنه المهدي بعشرة الاف الف درهم . ويعطي ابنه الف الف درهم))[٣٣] .

ويشتري صمت أصحاب ابي مسلم الخراساني وسكوتهم ب ثلاثة الاف الف درهم قذفت اليهم مع راسه عند مقتله[٣٤]. فالرجل لايمنعه بخله . ولا يقف حائلا دون العطايا إذا جد الامر ، ودعت الحاجة إلى العطايا بل والبذخ فيها مادامت هي السبيل لضمان سلامة الخلافة ومن يتولاها بامان .

والظاهر ان ابا جعفر المنصور سبق ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في فكره السياسي[٣٥]. ونظرته في قيام الدول وطروق الخلل اليها،اذ جعل من العصبية والمال ركنين اساسين لحكمه. وسبيلا لضبط رعيته، واساسا لثبات دولته. وكان يقول : ((من قل ماله قل رجاله . ومن قل رجاله قوي عليه عدوه . ومن قوي عليه عدوه اتضع ملكه ومن اتضع ملكه استبيح حماه))[٣٦] .

والحق لانريد ظلم الرجل واتهامه . فهو لم يبعد عن الصواب ، ولا جاوز المدى من اجل حماية سلطانه وحفظ ملكه . وصون امنه . ولكن عيبه انه لم يقسم

بالسوية . ولا عدل في الرعية . والامثلة تكثر وتتعدد بتعدد احداثها ، ففي رواية الجهشياري ((إن اسوارا القاضي بالبصرة من قبل ابي جعفر المنصور كان له كاتبان رزق احداهما اربعين والاخر عشرين . فكتب له سوار السوية فنقص صاحب الاربعين إلى عشرة وزاد صاحب العشرين عشرة))[٣٥]. بينما وفرت ضياع البصرة وحدها لابي جعفر المنصور اكثر من ثلاثين الف درهم . وحين اراد بناء سور الكوفة ، وحفر خندقا لها ، امر بقسمة خمسة دراهم على اهل الكوفة ، واراد بذلك علم عددهم ، فلما عرف عددهم امر بجبايتهم اربعين درهما من كل انسان فجبوا ، ثم امر بانفاق ذلك على سور الكوفة ، وحفر الخنادق لها . فقال شاعرهم[٣٦] :

يالقوم مالقينا من امير المؤمنينا
قسم الخمسة فينا وجبانا الاربعينا

وسلك الاتجاه نفسه مع اهل البصرة ، ففي رواية الطبري ((إن المنصور ضرب على الكوفة والبصرة سورا وجعل ما انفق على سور ذلك وخندقه من اموال اهلها))[٣٧]. والبصرة لاتبعد كثيرا عن عاصمة الخلافة ، ولاهي على خلاف معها ، فما بالك بمناطق بعيدة عن بغداد ولا يربطها معها سوى عدالها لبني العباس .

والباحث في المقاطعات التي خضعت للدولة العباسية تتجلى امامه صور مذهلة لما حدث ، فهذا والي ارمينية يناشد المنصور إن يضع حدا لمعاناة جنده في هذه الاماكن النائيه ، والذين فقدوا ارزاقهم ، ولم ينالوا عطاءهم ((وانهم قد شغبوا عليه وكسروا اقفال بيت المال واخذوا ما فيه)) فجاء جواب المنصور : ((اعتزل عملنا . فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينتهبوا)) [٣٨] .

والجهشياري وهو كاتب عدل موثوق . ومؤرخ جليل مرموق انتظم في دواوين دولة بني العباس ، وشغل ارفع مناصب الادارة وتولية العمال والولاة والوزراء وجباية الخراج فيها ، خير شاهد على ما وصلت إليه الاوضاع المالية والاقتصادية بما دوّن من معلومات سواء كانت مطالعة أو مشاهدة أو سماع . وهو

غيض من فيض وقليل من كثير مبثوثا في كتابه الرائع ((الوزراء والكتاب)) ذلك الكتاب الذي ضاعت اغلب اوراقه ، ولم يبق الا نزر يسير منها(٣٩) .

فروايته عن عامل المنصور على فلسطين عبد الوهاب ابن ابراهيم الامام ابن اخي الخليفة المنصور ، وصورة لما يلقي الناس على يديه مستغلا عداءها للعباسيين وموالاتها لبني امية . فهو يقول : ((ان عبد الرحمن نتف اهلها))(٤٠) عبارة لاحاجة تدعو للشرح أو التعليق . كانت نتائجها ثورة عارمة في هذه المناطق دفعت الخلافة ثمنها باهضا(٤١) .

وسلك ابو ايوب المورياني الذي تولى الدواوين مع الوزارة للمنصور، الطريق ذاته بعد ((إن غلب عليه غلبة شديدة، وصرف اهله جميعا في الاعمال))(٤٢) ففي رواية ابي العيناء إن رجلا من الأهواز جاء إلى ابي ايوب فقال له : إن ضيعتي بالاهواز قد حمل عليّ فيها العمال . فان راي الوزير إن يعيرني اسمه اجعلها عليها ، واحمل اليه في كل سنة مئة الف الف درهم. فقال قد وهبتك اسمي))(٤٣). نص عجيب، يقف الباحث امامه متأملا، وهو يحمل في ثناياه مآخذ جمة لاتخفى على لبيب، ويدرك مضمونها كل اريب، عمال نهابون سلابون، وزراء مرتشون مداجلون، وبينهما رعية ضاع حقها ، واكل جهدها ، وابتلعت حقوقها .

هذا ابو ايوب المورياني ، الرجل الأول في دولة بني العباس والمقرب من ابي جعفر ، ورفيق صباه . مثالا صارخا لما كان عليه رجالات الدولة عهد المنصور ، فالرجل افضل ولاج لابواب السلب ، نهاب للاموال ، عارف طرقه ومسالكه ، غير مكترث للرعية التي استوزره المنصور من اجل رعايتها ، وتسهيل مصالحها ، وضمان عيشها ورفاهها .

وتتوالى نصوص الجهشياري ورواياته للفوضى الادارية والمالية التي عمت مفاصل الدولة العباسية ومؤسساتها . واضحت احد اميز ملامحها . واساس قيمها ومقوماتها فتذكر ((إن الاسعار رخصت في ايام ابي جعفر فسولت لابي ايوب نفسه إن

يشتري طعام سواد الكوفة والبصرة وطمع في الربح . فغفل ذلك . فكتب المنصور عليه كتابا بذلك وخلده الدواوين . وكان يطالبه بالمال . وتتابع الرخص عليه . وارهقة المنصور بالمطالبه بالمال))[٤٤] .

بهذه الصورة الجلية التي يضعنا الجهيشاري أمامها ، سارت الإدارة في عهد المنصور . وزير يسرق الناس قوتهم . وخليفة يشاطره السرقه . ويزين له سلب الرعية . ونهبها .

وفي خراسان لم تتغير الأوضاع التي سادت هذه المنطقة في عهد الأمويين. بل زادت الأمور سوءا ، بفضل سياسية لم يألفها أهل هذه البلاد من قبل ، ولم يعتادوا عليها ، حين فرض الخراج عليهم مرتين ، ففي رواية المقدسي ((إن الفساد فيه قد نشأ، الخراج مرتين في سنة. والضياع أهلها في بليّة))[٤٥]. وتجاهل المنصور رسائل عبد الجبار بن عبد الرحمن عامله على خراسان وتحذيره من سوء الاوضاع المتعبة والغلاء الفاحش راجيا حلا مرضياً للاحوال المعاشية وامتصاص النقمة ، فكان الجزاء العزل واستخراج ما قدر عليه من امواله[٤٦] .

ومن همدان تسمع اصوات المتظلمين وشكواهم ، وما لحق بهم من ظلم ، ومسهم من اجحاف ، حين نهبت ضياعهم على ايدي ولاتهم قدر بعض منها بالف الف من الدراهم[٤٧] .

وفي رسالة الصحابة[٤٨]، لابن المقفع (ت١٤٢هـ) صورة حية واضحة جلية. نتلمس خلالها المظاهر السياسية إلى جنب المعضلات الاقتصادية والاجتماعية التي حفل بها المجتمع العباسي . وانعكست ظلالها على مجمل المقاطعات والبلدان التي خضعت لعاصمة الخلافة ، وضمت امما متعدده ، واقواما مختلفه ، واجناسا متباينة .

وبعد ، فالرسالة مثلت اسلوبا هادئا ، ونقدا لاذعا لنظام الحكم ، ونهجا صادقا لمعالجة الأمور ، وهي صوت الرعية لاذان الخليفة المتسلح بالحكم المطلق . وكاتب الرسالة ومنشؤوها ذو عقل راجح ، وفكر حصيف ، خبر السياسة ، وسبر اغوارها ،

وهو خبير بصير بالحاكمين من امويين وعباسيين . وهو فوق ذلك كله مصلح قدير . وواعظ كبير . اختمرت تطلعاته الاقتصادية والاجتماعية بفكر سياسي وقاد كانت ثمرته رسالة جميلة العبارات . سهلة الكلمات . قدمت منهجا كاملا للحكم . وعرضا لما يجب ان يكون عليه الحاكمون [٤٩].

ولسنا بسبيل عرض الرسالة . وتفصيل محتواها واستعرض مدلولها . قدر الاهتمام بطريقه العرض . واسلوب العلاج لوضع اقتصادي متعب ناء تحت ثقله الجمهور الاعظم من الناس [٥٠].

عرف ابن المقفع حياة الخلفاء واسرارها . وخفايا القصور ودسائسها . وشهد الانقلاب الذي اطاح بدولة الامويين ليتولى العباسيون السلطة من بعدهم . وهو وافد اهل البصرة للتهنئة باعتلاء ابي العباس السفاح سدة الملك [٥١]. ومنظم العهد وكاتبه بين المنصور واعمامه في الخلاف الذي اثارة عصيان عمه عبد الله بن علي . ودفع راسه ثمنا لذلك العهد [٥٢].

خبر الرجل بطانه السوء واصحاب المباخر وحذر منهم . فهم مصدر الخير إذا نصحوا. وغاية البلاء إذا طمعوا ((البطانة بهاء الخليفة وزينته وخاصته من عامته . والسنة لرعيته لاتصلح الا بهم . ولا تستقيم الأمور الا على أيديهم)) [٥٣].

يضع ابن المقفع يده على داء السياسية المالية في الدولة الإسلامية . ويكشف علة مشاكلها . وما صاحبها من فوضى سياسية عصف تيارها بالقيم التي سادت دولة الإسلام . ولم تستطع الحكومات المتعاقبة مواجهتها . وايجاد الحل الناجح لها . أو التخفيف من حدتها . وكانت في جملة المآخذ في عهد الراشدين . واتسعت زمن الامويين . ووصلت ذيولها عصر العباسيين . وشكلت قاعدة الثورة العارمة التي اطاحت بالبيت الاموي ليحل محلهم بنو العباس . اعني مشكلة الارض ومن يستغلها ويعمل فيها . والتي عبر عنها ب ((الارض والخراج)) . مصطلح دل على عقل اقتصادي منظم . وفكر تقف حائرا عن تصوره . رصد الحدث . وعبر عنه اصدق

تعبير . اذ شخص الداء وهيأ دواءه . فهو يقول في رسالته لابي جعفر المنصور : ((ومما يذكر به امير المؤمنين امر ((ارض والخراج))، فان اجسم ذلك واعظمه خطرا، واشده مؤونة ، واقربه من الضياع ما بين سهله وجبله.. فلو إن امير المؤمنين اعمل رايه في التوظف على الرساتيق والقرى والارضين وظائف معلومة، وتدوين الدواوين بذلك، واثبات الاصول، لرجونا إن يكون في ذلك صلاح للرعية، وعمارة للارض، وحسم لابواب الخيانة وغشم العمال))[٥٤] . وهي حلول خبير عرف مفاصل الخلل في الدولة الجديدة، ولم تزل في صبا ايامها، فهو ينصح بمسح الارض، ويحصى ماعليها، وان يكتب اسماء ملاكها وزراعها خلال تصور مقبول ضمن خطة الاصلاح الارض وعمارتها ليعرف كل ذي حق حقه ، فياخذ ماله ، ويؤدي ما عليه . ولا عجب فالرجل سليل امة لها طويل باع في سياسة الملك والادارة ونظم المال واقتصاده .

ويستشف من رواية الطبري إن المنصور اولى عناية خاصة بالدواوين ، ووضعها في سجلات لحفظها وصيانتها من العبث[٥٥]. وخوفا عليها من التلاعب والاحتيال الذي بدا ظاهر انذاك . ولا يستبعد إن يكون الرجل اخذ بنصائح ابن المقفع وارائه .

ويذهب الماوردي[٥٦] ابعد من ذلك بالقول إن المنصور فكر في نظام المقاسمة ، خلافا لما يقوله البلاذري[٥٧] : إن هذا الاصلاح تم في عهد المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ)، واذا كان الاصلاح حدث بتأثير نصائح ابن المقفع ووصاياه ام بفعل الحاجة للتغيير . فان الدولة ادركت خطر التمادي في أهمال موضوع الخراج وطرائق جبايته وتحصيلها .

ما من شك إن استحصال الخراج وطرائق جبايته في عهد العباسيين لم تختلف عما كان شائعا في عهد الأمويين ، بل زادت أساليب الاستيفاء شدة وضراوة ، يؤيد ذلك رواية الجهشياري ((أن أهل الخراج كانوا يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير والسنانير . وكان محمد ابن مسلم خاصا بالمهدي ، فلما تقلد الخلافة ووجد أهل الخراج يعذبون شاور محمد بن مسلم فيهم))[٥٨] . وقف ابن المقفع داعيا لترك

الأرض بأيدي اصحابها والقائمين عليها ، ودفع المتطفلين عنها ، وابعاد الحاشية والمقربين من البلاط وقادة الجند واصحاب النفوذ. ذلك ((ان صلاح الجند الا يولي احدا منهم شيئا من الخراج. فان ولاية الجند مفسدة للمقاتلة))[٥٩] . وهو راي مراقبة ومعاينة للاحداث التي شاهدها عن قرب ، وبصرها عن جنب وفي مدينة البصرة حيث نشا وترعرع، اذ منح ابو جعفر المنصور اقطاعات كبيرة لاولئك القوم ،بل ان هباته وعطاياه لم تقتصر على الارض ، وانما ملكهم حق مياهها[٦٠] .

انتهج المنصور سياسة مالية واقتصادية مجحفة بحق الرعية تقوم على التقتير والتضييق ، واستخدام المال العام لتثبيت السلطة ، وتوطيد سلطان العائلة الحاكمة ، ففي رواية صاحب الاخبار الطويل ((ان المنصور ارسل جيشا للقضاء على تمرد عمه عبدالله بن علي (صرف علىاعداده وتجهيزه بين ١٢-١٨ الف دينار، وزاد عطيات الجند من ٦٠-٨٠ درهما)))[٦١] . وتلقي رواية ابن قتيبة ضوء اخر على السلوك ذاته ايام ثورة عيسى بن زيد على ابي جعفر المنصور حين قاتله بين الكوفة وبغداد ((حتى هم المنصور بالهزيمة مما دفعة الى ان يعد جنده بالعطايا الواسعة ، والصلات الجزيلة))[٦٢] . فالرجل عجيب طوره ، غريب امره ، سلك طريقا معوجا يقوم على اخافة الرعية وترويعها من دون كسب ودهم وجلب محبتهم ، وكانت وصيته لابنه وخليفته ((اني تركت الناس ثلاثة اصناف : فقيرا لا يرجو الاغناك ، وخائفا لا يرجو الا منك ، ومسجونا لا يرجو الا الفرج منك . فاذا وليت فاذقهم الرفاهية ، ولا تمدد لهم كل المد))[٦٣] .

لم يوفق المنصور في كسب رضى الامة ، ولا عمل على اسعادها لحكم امتد اثنتي وعشرين سنة ونيف اعتمد شدة البطش ، وقوة الجند لتكميم اصواتها وملاحقة ثوارها ، ومع هذا فانه لم يفلح في تهدئة الاصوات التي تزعمت الاصلاح ، ونادت جهرة بالعدل والمساواة ، يقودهم الاتقياء المتدينون ، والفقهاء الملتزمون ، حيث لم تستطع اموال المنصور وهباته شراء السنتهم واخفاء اصواتهم فغدو شوكه في جنبه، وغصه في حلقه. ففي رواية للاصمعي :((ان المنصور لقي اعرابيا بالشام فقال: احمد

الله ياعرابي . الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا اهل البيت . قال : ان الله لايجمع علينا حشفا وسوء كيل، ولايتكم والطاعون))[٦٤]. ويقف سفيان الثوري الرجل الزاهد بوجه المنصور وجبروته قائلا : ((فما تقول ياامير المومنين فيما انفقت من مال الله . ومال امة محمد بغير اذنهم، وقال عمر بن الخطاب في حجة قد انفق ستة عشر دينار، وهو ومن معه، ماارانا قد اجحفنا بيت المال))[٦٥] . في مواجهه حاده بين المنصور وابي ذؤيب الفقيه تتجلى المواقف الجريئة المعارضة لسياسة الخلافة العباسية ومن يتولاها والتي ابتعدت عن روح الاسلام وتعاليمه، ((قال المنصور: نشدتك الله أي الرجال انا عندك، فقال ابو ذؤيب: انت والله شر الرجال، استاثرت بمال الله ورسوله، وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين . اهلكت الضعيف . واتعبت القوي . وامسكت اموالهم . فما حجتك بين يدي الله))[٦٦]. وكان جواب عبد الرحمن بن زياد لابي جعفر المنصور . وهو صديقه قبل الخلافة.فلما ولي الخلافه وفد اليه . فقال: كيف سلطاني من سلطان بني اميه ؟ قال : مارايت في سلطانهم من الجور شيئا الا رايته في سلطانك))[٦٧]. وعندما اخذ المنصور الناس بلبس القلانس اهتبلها ابو دلامة الشاعر فرصه سانحه للتعبير عن السخط العام لسياسة المنصور وذلك قوله[٦٨] :

وكنا نرجي من امامٍ زيادةً　　　فزادَ الامامُ المُصطفى في القلانسِ

ضاق المنصور ذرعا بما يسمع بعد ان فشت المقاله بين الناس . ولم يعد السكوت يجدي نفعا فلبس للرعيه ثياب النمور قائلا : ((فقد بلغ امير المومنين عنكم مااخشن صدره، وضاق به ذرعه . وكنتم احق الناس بالكف من السنتكم واولى الناس بلزوم الطاعة))[٦٩]. فاخذ بالظنه . وعاقب على الشبهه حتى لامه اهل بيته وموضع ثقته وفي مقدمتهم عمه عبد الصمد في حوار بين الرجلين قائلا : ((لقد هجمت بالقوة حتى كانك لم تسمع بالعفو . فكان جوابه : لان بني مروان لم تبل رممهم . وال ابي طالب لم تغمد سيوفهم . ونحن بين قوم قد راونا امس سوقه . واليوم خلفاء . فليس تتمهد هيبتنا في صدورهم الا بنسيان العفو واستعمال العقوبة))[٧٠]. وحين دنا موته، وحانت منيته في طريقه الى مكه اسف عما جنت يداه بحق رعيته . ومالقيته الامه

على عهده . ففي رواية الهيثم بن عدي ((انه حين ثقل حث الربيع مولاه بان يسرع به باتجاه بئر ميمون قائلا: بادر بي الى حرم ربي وامنه هاربا من ذنوبي . واسرافي على نفسي))[٧١] . وبعد نيف وعشرين عاما قضاها المنصور حاكما مستبدا، وسيد لايطال سلطانه طائل .حصد ماشاء من الاعناق غير مفرق بين غريب ونسيب . ولا بعيد او قريب مادام الامر تعلق بسلطانه او مس بعض اركانه . فاذا عصاره كل ذلك ((ان حفر له مائة قبر ودفن في كلها لئلا يعرف موضع قبره الذي هو ظاهر للناس . ودفن في غيرها خوفا عليه))[٧٢] .

وبوفاة المنصور ومجي المهدي (١٥٨-١٦٩ هـ) بدأ عهد جديد يطل على الخلافة . احسبه افضل مامرت به دولة بني العباس . واكثره هدوءا نعمت به الرعيه بعد طويل من الهم والغم مارسه المنصور طوال حكمه. جثم على صدور الناس ثقله .

شهدت خلافة المهدي محاولة موفقة للتغيير . واعتمدت الاصلاح اساسا لنظم الدولة ومؤسساتها . والرفق بالرعية قاعدة لنهج السلطة وطريق تعاملها. ناهيك عن التسامح الذي ابداه المهدي تجاه الخارجين عن النظام. وانصاف المظلومين . واشاعة المال العام من دون احتكار وتوزيع الثروة بالعدل والمساواة .

والباحث في هذه الحقبة من دولة بني العباس يلحظ نزق الحضارة وغضارة العيش الذي نعمت فيه الامة . وعدّ رخاء واسع شمل اغلب طبقاتها بفعل الاموال التي زخت على شكل هبات وعطايا وماصاحب ذلك من اوامر للتخفيف عن الرعية والعناية بها. ففي رواية الجهشياري ((ان المهدي امر العمال بالكف عن الحاق الاذى بالناس، ونهى من تحصيل المتاخرات))[٧٣]. وهي اموال تكدست على اصحاب الارض . ولم يعد باستطاعتهم الايفاء بها . نتيجة الكساد اقتصادي ورثه العباسيون عن دولة الامويين بفعل انخفاض اسعار الغلال وضعف قدرة الزراع الايفاء بالتعهدات الخراجية التي وضعت على اراضيهم .

ادرك المهدي التفاوت الكبير في الثروة. والتوزيع المتباين لها. لايتمشى

وسلامة الحكم، ولايحفظ للامه وحدتها وقوتها ،فقد كانت المشكله الاقتصادية احد ابرز اسباب اضطراب الاوضاع في عهد الامويين . والنذر التي سبقت الاطاحة بدولتهم. فبسط يده في العطاء وسيلة لامتصاص اسباب التذمر، وطريقا لتصحيح الاوضاع المتردية التي خلفها سلفه. حتى ((اذهب جميع ما خلفه المنصور، وهو ستمائة الف الف درهم ، واربعة عشر الف الف دينار سوى ما جباه في ايامه))[٧٤]. على مايقوله المسعوي . وفي رواية الجهشياري ((تسع مائة الف الف درهم . وستين الف الف درهم))[٧٥]. بالغ المهدي في محبة الرعية، وكسب ودهم والعمل على اسعادهم، حتى اثقلت هباته وعطاياه بيت المال ، وعاقت الوفاء بالتزاماته ففي روايه المسعودي ((انه لما فرغت بيوت الاموال اتى حارثه النهري خازن بيوت امواله فرمى المفاتيح بين يديه وقال : مامعنى المفاتيح لبيوت فرغ ؟

ففرق المهدي عشرين خادماً في جباية الأموال فوردت الأموال بعد أيام قلائل فتشاغل أبو حارثة بقبضها وتصحيحها عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام، فلما دخل عليه، قال: ما اخرك؟ فقال: الشغل بتصحيح الأموال، فقال : أنت أعرابي أحمق، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا اذا احتجنا اليها[٧٦] . لكن النهري كان أقوى صحجة، وأبرع أجابة (أن الحادثة اذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه في استخراج الأموال وحملها)[٧٧].

والروايات تكثر وتتعدد بشأن بذخ المهدي وأسرافه، وهي سجايا نشأ الرجل عليها، وتربى بين احضانها، وعكسها على من أحاط به، فأصاب نواله الخاص والعام من رعيته. ففي رواية الجهشياري (أنه أنفق على متنزهه في عيساباذ خمسين الف الف درهم من أموال المسلمين)[٧٨]. وفرق في عشرة أيام من صنب مائه عشرة آلاف الف درهم[٧٩]، حتى أضطر الوزير يعقوب بن داود الى مكاشفته في أمر أراده بقوله: (هذا والله السرف، فقال المهدي: وهل يحسن السرف الا بأهل الشرف، ويلك يا يعقوب، لولا السرف لم يعرف المكثرون من المقلين)[٨٠].

وجاوز ترف القصور وبذخها كل ما هو معقول، بل دخل بعضها في عداد الخيال، فهدية المهدي لزوجته الخيزران (الف جارية، والف وصيف مع هدايا

أخرى)[٨١]. وقصره المعروف بالخلد ضم بين حيطانه مائة وخمسين من الجواري المغنيات[٨٢]. ولم لا. فالخيزران من كبار ملاك الأرض والمثرين حتى أنها جعلت كاتبا خاصا يدير شوون أملاكها[٨٣].

لم يغفل المهدي المعضلة السياسية في الحجاز. مركز الصحابة ومعقل المقاومة للعباسيين وأثرها السياسي والأجتماعي في هذه المنطقة من العالم الأسلامي. فاتجه صوبها لأمتصاص تذمرها. وربط تطلعها بقاعدة الخلافة. وبالغ في العطاء لأهل مكة والمدينة فوجد فيما أعطى لأهلها (ثلاثين الف الف درهم حملت معه. ووصلت اليه من مصر ثلثمائة الف دينار. ومن اليمن مائتا الف دينار. فقسم ذلك كله. وفرق من الثياب مائة الف ثوب وخمسين الف ثوب)[٨٤]. وتوثقت علاقته بأهل المدينة حين أمر (بأثبات خمسمائة رجل من الأنصار ليكونوا معه حرساً له بالعراق وأنصاراً وأجرى عليهم أرزاقاً سوى أعطياتهم وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعة تعرف بهم)[٨٥].

وتوطدت علاقة المهدي بالعلويين بعد ان تقطعت أسبابها في عهد والده الذي نكل بهم شر تنكيل. فحبس بعضهم حتى ماتوا. وقيل أنهم وجدوا مسمرين[٨٦]. فأطلق من تبقى منهم في سجون أبيه. وكرم بعضهم. وجعل لهم حصة في بيت المال.

شهد عهد المهدي أصلاحاً زراعياً جليلاً. وعملاً أقتصادياً خطيراً طال موضوع الأرض وجباية خراجها. وهي قضية لم تقو الدولة الأسلامية طوال عهودها معالجتها بحكمة ودراية. وتولى مسؤولية هذا العمل الخطير الوزير أبو عبيد الله بن معاوية بن يسار (الذي عهد اليه المهدي تدبير المملكة. وسلم اليه الدواوين. وكان مقدماً في صناعته. فأخترع أموراً منها نقل الخراج الى المقاسمة)[٨٧].

فهو مهندس الاصلاح ومنفذه. والمشرف على أصوله وقواعده. ويصفه صاحب الفخري (بأنه جمع حاصل المملكة. ورتب الديوان. وقرر القواعد. وكان كاتب الدنيا. واوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة)[٨٨]. وينسب اليه أول كتاب في الخراج.

وتبعه الناس بعد ذلك فصنعوا كتب الخراج[٨٩].

ولسنا بسبيل تفصيل الطريقتين ولا عرضهما قدر أهتمامنا بأهمية الحدث ونتائجه . والثمر التي حصلت عليه الرعية. فرواية البلاذري عن يحيى بن آدم قوله: (اما مقاسمة السواد فأن الناس سألوها السلطان في آخر خلافة المنصور فقبض قبل أن تقاسموا، ثم أمر المهدي بها فقوسموا فيها دون عقبة حلوان)[٩٠]. وفي رواية أخرى للبلاذري نقلها أكثر توضيحاً، وأفضل تفصيلاً وذلك قوله: (فقوسم أهل السواد على النصف بعد المساحة التي كانت تمسح عليهم)[٩١] . أما رواية الماوردي فتصور الحدث بكل معطياته، وجميع أبعاده وتبرز الجوانب الخفية التي أغفلها البلاذري والأسباب التي دعت لهذا التعديل، فهو يقول: (ولم يزل السواد على المساحة والخراج الى أن عدل بهم المنصور-رحمه الله- في الدولة العباسية من الخراج الى المقاسمة. لأن السعر نقص، فلم تف الغلات بخراجها، وخرب السواد، فجعله مقاسمة، وأشار أبو عبيد الله على المهدي أن يجعل ارض الخراج مقاسمة بالنصف)[٩٢] .

والباحث في رواية الماوردي تتجلى أمامه حقائق جلية. وأبعاد أقتصادية واضحة عمت المجتمع الأسلامي، تحت ظل الدولة الأموية، وشغلت شطراً من دولة بني العباس تمثلت في العلاقة القائمة بين أنخفاض أسعار الغلات. وعدم قدرة الأرض على الأيفاء بخراجها، مما دفع ملاك الأرض والزراع والقائمين على عمارتها لتركها والنزوح عنها،فكان ذلك مدعاة لعوامل الخراب الذي عم كثيراً من مناطق السواد[٩٣].

ضمن نظام المقاسمة دخلاً ثابتاً وخراجاً معلوماً تدفعه الأرض الخراجية، وتخلص أصحاب الأرض من وطأة الضريبة وثقلها. التي لم يكونوا قادرين على الأيفاء بها. وأنهى تحكم الولاة والعمال وصغار موظف الدولة الذين عهدت اليهم مسؤولية الأشراف على الارض، وأستحصال خراجها، على وفق نظام المساحة الذي كان قائماً من قبل. وهو ما أشار اليه أبن المقفع ونبه له في رسالته (أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها ثبت ولا علم. وليس من كورة الا تغيرت وظيفتها مراراً فخفيت وظائف بعضها. وبقيت وظائف بعض)[٩٤]. ولا سبيل على وجه التحقيق

معرفة بدء العمل بهذا النظام. ولا كيفية العمل به، وهل شمل الأرض الخراجية أم اقتصر على بعض منها من دون بعض. وهل ضم ما أقطع من الأراضي. وهل انتهى أمر النظام بوفاة المهدي.

أسئلة تقف الروايات عاجزة عن الأجابة عليها. والنصوص لا تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً بشأنها. وكل ما يقال أن المهدي عهد الى ابي عبيد الله وسلم اليه تدبير مملكته سنة ١٥٩ هـ.

أفلحت سياسة الخليفة المهدي القائمة على التهدئة والترضية، وعلى سياسة السلم مع الجماعات التي ناصبها والده العداء، مستغلا بيت المال وأمواله الفائضة لهذه الغاية. فساد عهده هدوء واسع، أختفت خلاله أصوات المعارضة السياسية لسلطان بني العباس (فأحبه الخاص والعام حين كف عن القتل، وأمن الخائف، وأنصف المظلوم)[٩٥].

بالغ المهدي في التودد لرعيته، وكسب محبتهم ونيل رضاهم مبلغاً بعيداً، اعانة بيت مال غني وخزائن تكدست فيها الثروات، ناهيك عن نفس زكية كريمة وجدت في السخاء بابا يكسب منه الحمد، ويسمع فيه كريم الثناء. ففي رواية اليعقوبي (أن المهدي أمر بأخراج من في المحابس من الطالبيين وغيرهم من سائر الناس، فأطلقهم وأمر لهم بجوائز وصلات وأرزاق دارة، ثم أطلق سائر الناس. ولم يطلق أحداً الا كساه ووصله على قدره، حتى بلغ الى عبد الله بن مروان، وكان في الحبس من أيام أبي العباس، فأمر بتخلية سبيله، وأعطاه عشرة الأف درهم)[٩٦].

ونال الزيدية حظوة كبيرة في بلاط العباسيين. وهم أعداء الخلافة التقليديين (فأتى بهم من أوب. وولاهم من امور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل عمل نفيس)[٩٧].

وبعد، فأن الهدوء الذي مرت به الدولة العباسية، وفيض الأموال التي أزدحمت بها بيوت المال، والأنسجام الذي أولدته سياسة المهدي في المجتمع

العباسي. زرع الثقة بين الدولة وجماهيرها، وأستل السخيمة من قلوبها. وعمل على أزالة أسباب التذمر بين رعاياها.

وبوفاة المهدي أخذت عوامل الضعف السياسي تتمشى في مفاصل دولة بني العباس. وهي في أوج عهد الشباب والقوة. واحسب رواية الطبري تنهض دليلاً على ما نذهب اليه. فهو يذكر: (أن الموالي والقواد لما توفي المهدي ((بما سبذان)) أجتمعوا الى أبنه هارون، وقالوا له: أن علم الجند بوفاة المهدي لم يأمن الشعب. والرأي أن يحمل وتنادي الجند بالقفل حتى نواريه ببغداد) وكان ليحيى بن خالد البرمكي رأي مخالف (لأن هذا مالا يخفى، ولا آمن أذا علم الجند أن يتعلقوا بمحملة ويقولوا: لا نخليه حتى نعطى ثلاث سنين واكثر، ويتحكموا ويشتطوا. ولكن أرى ان يوارى رحمه الله ها هنا. وان تأمر لمن معك من الجند بجوائز مائتين مائتين، فأذا قبضوا الدارهم لم تكن لهم همة سوى أهاليهم وأوطانهم. وقال الجند لما قبضوا الدراهم: بغداد، بغداد. يتبادرون اليها، ويبعثون على الخروج من ماسباذان. فلما وافوا بغداد هجموا على دار الوزير الربيع فأحرقوه، وطالبوا بالأرزاق. وجمعت الاموال حتى أعطي الجند لسنتين)(٤٨) .

هذه الرواية وغيرها مثل كبير. وشاهد خطير لما للأثر المالي والاقتصادي في الحياة السياسية لدولة بني العباس، وهي لم تزل في أيام الصبا. وحشد الدعاة والمؤيدين لم تبح أصواتهم حول شعاراتها، والمناداة بالعدل والمساواة شعار الثورة وأحلامها لم تجف غضنارتها. فما القول اذا أمتد الزمن. وخفت الأصوات وسكنت قوتها. وتولى لسلطة حكام سدروا في أغواء الترف، ومتاهات القصور وسط دسائس المنتفعين والمتربصين.

تولى الهادي الخلافة (١٦٩- ١٧٠) هـ ودولة بني العباس في أبهى عزها السياسي. يشدها بذخ نال أرجاء مملكة الأسلاد، وسياسة متزنة راجحة سلكها المهدي للتوفيق بين رعاياه. وأنحاز الى صفة المتدينين بفضل سياسته تجاه ما عرف (بالزندقة) . وهي حركة سياسية أستغلها المهدي لأظهار أبهة الخلافة. ومظهرها

الديني. وللقضاء على الخصوم،وقادة الفكر الحر الذين تغلغلوا بين طبقات المجتمع الأسلامي بفعل أمتزاج مختلف لأجناس والأقوام التي أنضوت تحت ظل الدولة العباسية. وحملت معها قيمها وأفكارها وثقافتها في الدولة الجديدة.

لم يكن الهادي بالشخص الحصيف، ولا بالرجل المحنك، ولا بالخليفة الخبير بسياسة الملك وطرائق الحفاظ عليه وصيانته. تولى الخلافة وهو أبن السادسة والعشرين. لا خبرة تؤهله، ولا حصافة تقوده ولا عقل يرشده[٩٩] ، وفي أمبراطورية واسعة الأرجاء ، عظيمة الاصقاع ، ذات اهواء مختلفة ، واجناس متباينة ، وخلافاً لسياسة والده القائمة على التعامل بالحسنى، ودرء الأمور بالتي هي أحسن. سلك طريقاً معوجا حين أثار غضب الفئات المتطلعة للسلطة الناقمة على العباسيين نتيجة ضياع جهدها الذي ذهب أدراج الرياح. وفي طليعتهم الطالبيين الذين (أخافهم الهادي خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يجري عليهم من الأرزاق والأعطية. وكتب الى الأفاق في طلبهم وحملهم)[١٠٠] . فمهد لثورة الحسين بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩ هـ في الحجاز، أنتهت لصالح العباسيين عسكرياً في الموقعة المعروفة بموقعة (فخ)[١٠١]. لكن نتائجها كانت بالغة التعقيد، بعيد النتائج للسلطة العباسية الحاكمة. اذت الى قيام دولة جديدة أستقلت عن دولة بني العباس في مناطق المغرب. وأمتدت لأكثر من قرنين ناصبت الحاكم العباسي العداء. وحملت بيت المال في بغداد أموالاً طائلة للحد من نفوذها، وتخفيف أثرها في تلك البقاع التابعة للدولة العباسية[١٠٢].

لم يكن هم الهادي ومنتهى أمله، وغاية تطلعه سوى تنحية أخيه هارون والبيعةلأبنه جعفر بولاية العهد، وهي سياسة درج عليها الأمويون في دولتهم حين عبدوا بها الطريق لزوال ملكهم. وتابعهم عليها العباسيون، وبذلوا لهذه الغاية أموالا طائلة بالغت الروايات في مبالغها. ففي رواية الطبري (أن الهادي قال لمولاه الخراني: أحمل الى أخي الف الف دينار، واذا أفتتح الخراج فأحمل اليه النصف منه)[١٠٣].

ووصل يحيى بن برمك بعشرين الف دينار من أجل أقناع هارون بالتنازل لأبنه

جعفر بن موسى[١٠٤].

أستغل الهادي بيت المال للهوه وعبثه وتلبية رغباته وتمجيد شخصه، فهذا أبو دأب الشاعر يحصل على ثلاثين الف دينار لبيت قاله نال أعجاب الهادي ورضاه[١٠٥]. ويطربه إبراهيم الموصلي ويشجيه فيملأ جيبه (بسبع مئة الف درهم)[١٠٦] . وتكثر هبات الهادي وتتعدد عطاياه بكثرة عواده وتعددهم[١٠٧]، وهي أمثلة دلت على سوء أدارة، وجهل بالحكم وأصوله، وتبديد لثروة الأمة التي أئتمن الحاكم عليها.

ترك موت الهادي المفاجئ وضعاً صعباً للدولة العباسية ملقيا عليها حملاً ثقيلاً لم يكن هارون خليفته وأخوه قادراً على تحمله، فسلمت الدولة ومؤسساتها لآل برمك، وهي عائلة فارسية لها باع طويل قل نظيرها في الأدارة والحكم وتصريف الأمور وتدبيرها، بتفويض هارون يحيى بن خالد البرمكي كبير العائلة وزعيمها، سلطة لا حصر لها، أحسبها لم تعط لوزير طوال عهود الدولة العربية على توالي عهودها: (يا أبه. أنت اجلستني هذا المجلس ببركة رأيك، وحسن تدبيرك، وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك، فأحكم بما ترى، وأستعمل من شئت، وأفرض من رأيت، وأسقط من رأيت، فأني غير ناظر معك في شيء)[١٠٨] .

وفي دولة البرامكة وسلطانهم (١٧٠-١٨٧ هـ) يتضح رونق الأدارة وبهاء ملك بني العباس، وحسن التنظيم المالي في دولتهم بأختبار أصحاب الكفاءات، وأهل الفضل والنعمة، وأعيان القوم وأشرافهم، وكان يحيى بن خالد يقول: (لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان، فأستعينوا بالأشراف، وأياكم وسفلة الناس، فأن النعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم اكثر)[١٠٩] .

والروايات على أختلافها تظهر رخاءاً أقتصادياً وأجتماعياً عظيمين خلال عهد الرشيد نتيجة لتكدس الأموال الطائلة التي صبت في بيت المال وخزائنه، وتمتعت به الطبقة الحاكمة ووزراؤها ومن حسب عليها وسار في ركابها وليس لبقية الناس من

الأمر شيئا.

والمتتبع للوضع المالي في عهد الرشيد تتكشف أمامه حقائق مذهلة يصعب تصديقها من بذخ بالغ. وتبديد للثروة. واستهتار بحقوق الأمة واموالها. على حين تقبع فئات واسعة في زوايا النسيان.

استحوذت العائلة العباسية في عهد الرشيد على السلطة، وصارت الأمور يجري بين ايديها. فهم ولاة الأمصار وحكامها. وأصحاب الجاه والثراء في دولته. ففي رواية المسعودي (أن غلة الخيزران أم الرشيد. كانت مائة الف الف درهم)[١١٠]. وعند الخطيب البغدادي أن واردها أكثر من مائتي وستين الف دينار في لسنة. وجعلت عمران بن مهران كاتباً لادارة أملاكها[١١١]. وقدرت أموال محمد بن سليمان الى البصرة. وابن عم الرشيد نيفاً وخمسين الف الف رهم. سوى الضياع والدور والمستغلات[١١٢]. وكانت غلته في كل يوم مائة الف درهم. حتى شكاه اهل البصرة. ففي رواية المسعودي أن رجلا اعترض محمد هذا قائلا: (أمن العدل أن تكون نحلتك في اليوم مائة الف درهم، وانا اطلب نصف درهم فلا قدر عليه. أن كان ذا عدلاً فأنا أكفر به)[١١٣].

أما قصور الخلافة وبذخها فأمر شاعت أخباره في عهد الرشيد، اذ كلف زواجه بالسيدة زبيدة خمسين الف الف درهم[١١٤]. على حين ضمت تلك القصور أربعة الاف جارية من السراري الحسان[١١٥]. ما ادى الى غلاء أثمانهن في اسواق النخاسة التي عجت بها المدن الاسلامية فجاريته ذات الخال دفع من أجل شرائها سبعين الف درهم[١١٦]. وعوض إبراهيم الموصلي عن احدى جواريه سبعة وثلاثين الف دينار ثمن التنازل عنها[١١٧]. ولا ندري ما الثمن الذي دفعه الرشيد لشراء محظيته (حمدونة) الا ان الجهشياري يقول (انه أمر لها بأقطاع غلته مئة الف درهم. والف الف درهم صلة)[١١٨].

والحديث عما جرى في قصور خلفاء بني العباس، واماكن لهوهم فاق كل

وصف، وجاوز كل حد. على حين اشاع العباسيون التزامهم القوي بتعاليم الدين، والزهد بالدنيا ، واحاطو انفسهم بحاشية من الوعاظ والمتدينين المنتفعين، وذرفوا الدموع رخيصة لموعظة واعظ، أو حديث محدث يذكرهم بيوم الدين. ويحذرهم عاقبة الظالمين[١١٩]. ولم يعد العبث المالي والتلاعب بمقدرات الأمة واموالها حكرا على البيت الحاكم برجاله ونسائه، بل شمل وزراء الدولة وولاتها وعمالها والقائمين على أمورها. وتذهلك الروايات، وتدهشك النصوص وهي تتحدث عن وقائع لا حصر لها، واحداث لا يقبلها عقل ولا يسيغها منطق، فهذا الفضل بن يحيى البرمكي (يهب صاحب شرطه وحرسه أبراهيم بن جبريل أربعة الاف الف درهم، وهي خراج سجستان كلها. يزيده خمسمائة الف درهم)[١٢٠] . ولما قدم الفضل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد يستقبله (وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فجعل يصل الرجل بالألف واللف بالخمسمائة الف)[١٢١]. وبنى جعفر بن يحيى البرمكي داراً وانفق عليها نحوا من عشرين الف الف درهم[١٢٢].

واستصفى الرشيد علي بن عيسى بن ماهان عامله على خراسان. فبلغت أمواله ثمانين الف الف درهم[١٢٣]. ولم يكتف علي بن ماهان بنهب ولاية خراسان ومقاطعاتها حسب، ولكنه سام الناس خسفاً وعنتاً (وأذل الأعالي من أهلها وأشرافهم)[١٢٤]. وولى ابنه القاسم (جرجان) و(طبرستان) وقزوين فألجأ أهل (زنجان) ضياعهم تقرباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك والعمال عنهم فكتبوا في الاشربة وصاروا مزارعين له[١٢٥].

ويصل جعفر بن يحيى الأصمعي خمس مئة الف درهم. ويمنح أبان بن عبد الحميد اللاحقي مئة الف درهم حين صنع كتاب (كليلة ودمنة) وضمنه شعراً. ويشجيه صوت ويطربه فيعطي صاحبه ثلاثين الف درهم[١٢٦].

وعبث فرج الرحجي. عامل الرشيد على الأهواز ما شاء له العبث (فكثر عليه عنده. واتصلت السعايات به وتظلمت رعيته منه. وأعترف أنه جمع في عدة سنين عشرة الاف الف درهم) .

والحديث عن النهب السلب الذي أبتليت به الرعية طوال خلافة الرشيد يطول. وتبذير ثروة الأمة بين قصور الخلافة والمقربين منها، والعاملين على نشر فضائلها، وتلميع صورتها يكثر ويتعدد بكثرة المصادر وتعددها، ويلقي ضوءا ساطعا على مناهج عصر الرشيد وصورته الوهاجة في عديد المصادر التي دعته بالعصر الذهبي لدولة بني العباس.

وحقا لما يقولون ويدعون. فهو عصر الطبقة المترفة الغنية، وعصر اصحاب المال والثراء على حساب الأعم الأغلب من لناس . فرواية التنوخي (أن ثلثمائة درهم تكفي الرجل هو وزوجته طيلة عام كامل)[١٢٧] بينما يتكفل طبق من السمك الف درهم في عصر الرشيد[١٢٨].

وكان رزق عامل كل كورة من كور الموصل مائتي درهم في الشهر، فحط لكور شهرزور والصامغان وآباد ستمائة درهم[١٢٩]. على حين (يهب الرشيد الفضل بن الربيع لما عزم على بناء منزله من مال الأهواز خمسة وثلاثين الف الف درهم معونة على بنائه)[١٣٠].

وشكلت حملات الرشيد ومغامراته الحربية عبئاً ثقيلاً على الجماهير، وكلفت بيت المال أموالا طائلة، لم يعد بأستطاعته تحملها، وعلى الرغم من تعددها فانها لم تأت نتيجة سوى التلهية، واشغال النـاس، والظهور بمظهر المدافع عن حمى المسلمين، وصيانة دولة السلام.

فقد شهدت حملته على (هرقلة) بأرض الروم جيشاً قوامه مائة الف وخمسة وثلاثين الف سوى من لا ديوان له)[١٣١].

ترى كم كلفت تلك الحملات، ومن هم وقودها، وما هو موقف الرعية منها، وما هي عوائدها، وعلى من عادت نتائجها.

وتتكشف مآسي فاضحة خلال قائمة الجهشياري المالية وعديد من أوضاع فاسدة للعصر الذهبي للخليفة الرشيد. فقد بلغ ما يحمل الى بيت المال من جميع

النواحي من المال والأمتعة (خمس مئة الف الف، وثلاثين الف الف وثلاث مئة الف واثني عشر الف درهم)[١٣٢]. وهو أضخم مال دخل خزانة الدولة الأسلامية، وبيت مالها في جميع أدوار عصورها ، الا ان تبذير هذه الأموال والعبث بها وتصريفها في غير موضعها ادى الى أفلاس الدولة وبيت مالها، وحملها ثقلا جديدا فوق اثقالها. حتى أضطر الرشيد مجبراً على مساومة أبراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ، وجاءت المساومة التي أقترحها الأخير بدفع مساعدة لبغداد لا تزيد على أربعين الف دينار ثمن الأعتراف بسلطة أبن الأغلب، لسد عجز بيت المال المتخاوي، وتخفيف الوطأة عليه.

ترى أين ذهبت تلك الأموال، ومن المسؤول عن ضياعها ، وما سر هذا التبديد والتبذير في مرافق الدولة ومؤسساتها، واي غي سدرت اليه دولة بني العباس وهي في عز قوتها وأزدهارها كما يقولون.

وليس بودنا ولا هي غايتنا أن نحمل النصوص فوق طاقتها، وتجاوز مدلولها، والجري خلف هفواتها، لكننا نرجع الى وثيقة غاية في الاهمية ، وكتاب من أجل كتب التنظيم المالي والأداري في الأسلام، كتبه عالم خبير، واقتصادي جليل، وفقيه كبير، اعني كتاب (الخراج) للقاضي أبي يوسف يعقوب بن أبراهيم (ت ١٨٢ هـ) قاضي الخلافة في عهد الرشيد، والرجل المميز لوضع الحلول المناسبة للقضايا التي استعصت حلولها.

ولسنا بسبيل عرض الكتاب، وبيان محتواه والتعليق على نصه ومضمونه، لكننا نقتبس من خلاله نصاً فريداً في بابه، قوياً في الحجة على الدعوة أن عهد الخلافة الجديدة غدا عصراً ذهبياً ، وأن القوم في دعة وترف وبذخ، وأن الخير عم جماهير الأمة. وغدا العدل والمساواة يحتضن الجميع، وبات الناس ترفل بالنعمة والسعادة والخير. فهو يقول مخاطباً الرشيد، زكان قد كتب الكتاب تبعاً لرغبته ونزولاً لأمره، وتبعاً لمشيئته (بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة، منهم من له حرمة، ومنهم من له أية وسيلة، ليسوا بأبرار ولا صالحين، يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضي بذلك الذمامات، فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا

ينصفون من يعاملونه. أنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان . أو من أموال الرعية. ثم أنهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي. ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد. ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة، وهذا عظيم عند الله شنيع في الأسلام)(١٣٣) .

ترى أين ذهب نظام المقاسمة. الذي عدل بين الناس. ومنع ظلم الدولة وعمالها، ووضع الحدود لتجاوزها. واين عدل الخلافة ومؤسساتها، واين الخلافة وعصرها الذهبي. أفي عسف عمالها، أم ظلم ولاتها، أم في تعدي جباتها، هكذا تصاعدت الأصوات معلنة أستياءا صارخا لدولة بني العباس، وهي تردد: (ما على هذا أتبعنا آل محمد على أن تسفك الدماء، ويعمل بغير الحق) (١٣٤) .

لجأت الدعاية العباسية وابواقها على عادتها. الى الدين لتقوية الحكم المطلق. وتبرير افعاله. حين اخفق الحكام في أشاعة العدل والمساواة بين الجماهير وتحقيق آمالها. وهي التي فرشت لهم الطريق ورودا للوصول الى السلطة. فاندلع العصيان في كل مكان في مقدمتها خراسان التي وصل العباسيون بفضل جهود اهلها وسيوفهم الى السلطة(١٣٥).

أن السياسة المالية للعباسيين لم تختلف عما كانت عليه في عهد الأمويين. وان العهود التي قطعت لم تحقق والثورات لم تتوقف، والانتفاضات لم تهدأ حتى نهاية عهد الرشيد.

وتحملت الديار المصرية ضريبة الفوضى السياسية والاقتصادية التي عمت دولة بني العباس في عهد الرشيد. ونال أهلها تعسف الولاة والعمال العباسيين. فكانت الثورة سبيلا للتخلص من عبء الضرائب، ووسيلة للوقوف بوجه الطغيان الذي سلب المصريين أبسط حقوقهم، ففي سنة ١٧٧ هـ تولى مصر اسحاق بن سليمان (فلم يرض بما كان يأخذه قبله من الأمراء، وزاد على المزارعين زيادة أفحشت بهم فسئمه الناس وكرهته. وخرج عليه أهل الحوف من قيس وقضاعة)(١٣٦). فهزموا جيشه.

فعقد الرشيد لهرثمة بن اعين في جيش كبير بعث به الى مصر للقضاء على الثورة التي أندلعت في كل مكان، فجبى خراجها كله[١٣٧].

وما أن أنتهت المشكلة حتى تجددت سنة ١٨٦ هـ حين خرجوا على الليث بن الفضل البيوردي، وامتنعوا عن دفع الخراج بعد الزيادة التي احدثها، ولم يستطع الوقوف بوجه الثائرين، وتوجه الى بغداد يطلب جيشاً للقضاء على الثورة (لأنه لا يقدر على استخراج الخراج من أهل الحوف الأ بجيش يبعث معه)[١٣٨]. لكن الرشيد ولى محفوظ بن سليم الذي ضمن له خراج مصر عن اخره (بلا سوط ولا عصى) وصرف عنها الليث بن الفضل[١٣٩]. واندلع العصيان سنة ١٩١ هـ في ولاية الحسين بن جميل حين ابى أهل الحوف، مركز القاومة المصرية، وقوة تحشدها، من اداء الخراج. فبعث الرشيد جيشاً قاده يحيى بن معاذ فحاربهم فأدوا له الخراج، واستدرج رؤساؤهم من اليمانية والقيسية فحجزوا وقيدوا وجيء بهم الى بغداد[١٤٠].

حاول العباسيون بكل جهدهم توطيد الأوضاع، وكبح جماح الثورات بما بذل من أموال طائلة وهبات وفيرة، اخلت بميزانية بيت المال، ولم تات بنتيجة تذكر، وان أفلحت في أضعاف أهتمام الجماهير بالسياسة، وغضت طرفها عن اخطاء بني العباس وافعالهم.

لم تفلح الجهود السلمية في عهد الرشيد للتوصل الى اتفاق مرضي يزيل المعاناة، وينهي التذمر، ويدفع بالتي هي احسن، فكان الطريق الأصعب حين تزعم الجموع الغاضبة رافع بن الليث بن نصر بن سيار معلناً الثورة على العباسيين سنة ١٩١ هـ في مناطق المشرق مستغلا أوضاعا أقتصادية واجتماعية سيئة وكانت من الخطورة بحيث دفعت الرشيد نفسه لقيادة حملة لاخضاعها، لكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا[١٤١].

ورواية الجهشياري دليل ثبت وصورة واضحة للسياسة المالية السيئة التي مارسها العباسيون وولاتهم في مناطق المشرق، وجاءت نتائجها خلاف ما يشتهون،

وكان الرشيد بعد ان صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلدها علي بن عيسى بن ماهان. (فقتل وجوه اهل خراسان. وجمع أموالا جليلة. فحمل الى الرشيد الف بدرة معمولة من الوان الحرير. وفيها عشرة الاف الف درهم (فلما وصلت اليه سر بها. واحضر يحيى بن خالد فقال له: يا ابه، أين كان لفضل عن هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين. ان خراسان سبيلها ان تحمل اليها المواال. ولا تحمل منها. والفضل اصلح نيات رؤسائها. واستجلب طاعتهم. وعلي بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراختنها. حمل أموالهم. ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ لوجدت فيه أضعاف هذه. وسيفق امير المؤمنين مكان كل درهم منها عشرة. فثقل هذا القول منه على الرشيد. فلما أنتقض أمر خراسان. وخرج رافع بن الليث. واحتاج الى النهوض اليها بنفسه. حتى صار الى طوس، جعل يتذكر هذا الحديث، ويقول: صدقني والله يحيى ونصح لي فلم أقبل منه. والله لقد انفقت مئة الف الف وما بلغت شيئا) (١٤٢) .

والظاهر أن الدولة العباسية غدت أمورها سائبة. فلا سائس لمؤسساتها. ولا منظم للادارة فيها . ولاسيما بعد ان أنقض أمر البرامكة. فأختلت الأمور من بعدهم. وفي رواية الفضل بن مروان (ان أمور البريد والاخبار في ايام الرشيد كانت مهملة. وان مسرور الخادم كان يتقلد البريد والخرائط. ويخلفه عليه ثابت الخادم، قال: فحدثني ثابت أن الرشيد توفي وعنده أربعة الآف خريطة لم تفض)(١٤٣) .

شكلت وفاة الرشيد (١٩٣ هـ) حدا فاصلا بين قوة الدولة العباسية وهيبتها. وبداية للأنحلال والتفكك الذي أخذ ينخر هيكلها . وان بقيت مظاهر الخلافة الروحية قائمة. والخاضعين لسلطانها يبتغون الزلفى عندها حفاظاً على مصالحهم التي ورثوها منها.

هكذا ورث الأمين (١٩٣- ١٩٨هـ) دولة مفككة الأوصال. مضطربة الأحوال. ينتاب الخلل أوساطها وتضرب الفتن جوانبها. وان بدت في ظاهرها قوية الأركان. متينة البنيان. فلا مال يحرس المملكة ويصونها ولا رأي تهدي بها أمورها(١٤٤). فالرجل تولاها وهو ابن الثالثة والعشرين. ونشأ في بذخ وترف بين أحضان الجواري

وحنان القيان. وكانت جواري قصره قارين الألفي جارية حسب رواية البيهقي(١٤٥).

أحاط الأمين نفسه بجمع من الجهال، لاهم لهم غير أنفسهم. وما يدخل جيوبهم من مال وثروة . حتى قال يوسف أبن محمد في اعوان الأمين ومستشاريه(١٤٦):

أضاع الخلافةَ غشُ الوزير وحمقُ الأمير وجهلُ المشير

فبكر مشيرٌ وفضل وزير يريدان ما فيه حتف الأمير

ولا يعوز الباحث نص. ولا تنقصه رواية لأيضاح مجريات الأحداث في عهد الأمين من عبث بمؤسسات الدولة. وتبديد المال العام. وتبذير ثروة الأمة. فالمصادر على اختلاف مواردها والروايات باختلاف رواتها بينت عبثاً بمقدرات الأمة واستهتاراً بحقوقها قاده فتى غرّ لا يملك أبسط صفات الزعامة، ولا أدنى صفات القيادة. اتجه بالأمة الى الهاوية، وقادها الى خراب.

ورواية الجهشياري ليوم من أيام خلافته خير دليل على ما وصلت اليه هذه المؤسسة التي تقود المسلمين وتهديهم صواب الرشاد. فهو يروي (أن الأمين عزم يوماً على الأصطباح. واحضر ندماءه والمغنين وصف الموائد دخل عليه اسماعيل بن صبيح فقال: يا أمير المؤمنين، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج ، والضياع وجماعات العمال، وقد اجتمعت عليّ أعمال منذ سنة لم تنظر في شيء منها، ولم تامر فيها. وفي هذا دخول خلل في الاعمال) (١٤٧) .

والطبري في روايته عن حميد بن سعيد يذهب أبعد من هذا فهو يذكر أنه (لما ملك محمد الأمين وجه الى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم اليه. وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من خصيانه وجلسائه ومحدثيه. وحمل اليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح. وامر ببناء مجالس لمتنزهاته. ومواضع لخلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد. والخيزرانية . وبستان موسى ، وقصر عبدوية ، وقصر المصلى. وباب الأنبار)(١٤٨). وأبتنى سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة الاف الف درهم(١٤٩). وبذل عشرين الف الف درهم لجعفر بن موسى الهادي ثمناً لجارية تدعى

بذل هام بها الأمين[١٥٠]. والحقها بالآلفين من جواري قصوره.

ويعطي السيوطي وصفا دقيقا رائعا لشخصية الأمين وسلوكه السيء في تدبير مملكة الأسلام بقوله(كان الأمين سيء التدبير. كثير التبذير. ضعيف الرأي. أرعن. لا يصلح للأمارة)[١٥١].

وبعد عزل أخيه القاسم سنة ١٩٣ هـ من جميع ما كان أبوه هارون ولاه من عمل الشام وقنسرين والعواصم والثغور[١٥٢] أول خطوة على الطريق الخاطئ سلكها الأمين خلافاً للنهج السياسي الذي اتخذه خلفاء بني العباس بتوزيع مناصب الدولة وولاياتها على أبناء البيت المالك العباسي. ومن يمت اليهم بصلة القربى والموالين لأهل هذا البيت. فأخل بالعهد الذي كتبه الرشيد. ووثقه بشهادة العدول من الرجال والقادة والهاشميين أنفسهم[١٥٣].

خطأ الأمين نتيجة جشعه وجبنه. وطمع الرجال الذين أحاطوا به. وتحلقوا حوله حفاظا على مصالحهم السياسية والمالية. خطوة جديدة قادته لتنحية أخيه المأمون من ولاية العهد. والنتائج باهضة التكاليف التي أعقبت الصراع بينه وبين أخيه وتهولك النصوص لما حدث من أستغلال لبيت المال لمصلحة هذا الفريق أو ذاك. ومواقف الشخصيات المتصارعة وطبيعة التكتلات. واطماع الفرقاء.

فرواية الطبري أنه حين تمت بيعة الأمين أمر للجند بمدينة السلام برزق أربعة وعشرين درهماً شهرياً، وبخواص من كانت له خاصة بهذه الشهور، وأستمال كبار قادة الجند بزيادة العطاء[١٥٤]. وحين ضاق به الأمر فرق في قواد المحدثين من دون غيرهم خمسمائة الف درهم ، ولم يعط قدماء أصحابه مما دفعهم للألتحاق بطاهر بن الحسين الذي احسن أستغلال المال (أذ وعدهم ومناهم وأغرى الأصاغر بالقادة حتى غضبوا لذلك وشغبوا)[١٥٥].

ضاق الأمر بالأمين. فاصبح بين نارين. الجند الخراساني يقوده طاهر بن الحسين من جانب. وافلاس بيت المال وخزائنه الفارغة من جانب آخر. حتى أضطر

لضرب آنية الذهب والفضة لسداد أرزاق الجند. بعد أن باع كل ما في خزائنه[١٥٦]. فأتسع الفتق على الراتق، وقادته حاجته الى المال الى سلب الناس ونهب أموالهم. حين (أمر قائداً من قواده يقال له ذريح أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر من اهل الملة وغيرهم)[١٥٧].

ذاقت الجماهير مرارة الأحداث (وخرجت الديار، وعفت الآثار، وغلت الأسعار، وقاتل الاخ أخاه، وايس الناس الفرج، واشتد الجوع)[١٥٨]. بهذه الصورة المأساوية المؤلمة يصف المسعودي الحال التي أصبحت عليها دولة بني العباس وما أصاب الناس فيها من بلاء نتيجة لسياسة لم يحكم العباسيون تدبيرها، ولاهم أدركوا نتائجها. وتوزع الولاء بين المتنازعين في بلدان المملكة الأسلامية وأصقاعها.

وبمقتل الامين أنتشرت الفوضى، واتسع الخراب، واستمر الحال بضع سنين طوال بقاء المأمون في مدينة (مرو) يدير شؤون الملك نيابة عنه ببغداد الحسن بن سهل.

وفي سنة ٢٠٤ هـ وصل المأمون الى بغداد مستهلاً عهداً جديداً لدولة بني العباس يصح تسميته بعصر التجديد للدولة العباسية بعد الذي أصابها بسبب الحرب التي خربت مؤسسات الدولة، واتلفت نظامها المالي والأقتصادي.

يعد المأمون من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرجال وهو رجل المتناقضات، وسياسة الوفاق والترضية، ولا أحسب بني العباس أنجبوا خليفة تكاملت فيه صفات الملك، ورجاحة العقل، وحسنُ التدبير مثله، وهو فوق ذلك محاور محاجج لا يبارى، وصاحب حكمة ودراية لا يجارى[١٥٩]. أستطاع بحنكة سياسية ضمان ولاء الخراسانيين وتاييدهم بسياسة قل نظيرها بذ بها أخاه، وهو الخليفة المعترف به شرعاً، القابض على زمام الدولة ومؤسساتها، والمتحكم في عاصمة ملكه. وهذا دليل قدرة بالغة، وقابلية متقطعة القرين.

وفي خطوة بارعة ذكية حط المأمون عن خراسان ربع خراجها. فكسب ود

عقول القوم قبل قلوبهم فكانوا يقولون: (أبن أختنا، وأبن عم الرسول)[١٦٠]. مستبشرين بما ستأتي به الأيام من رفاه وخير على يديه. بعد أن ضاقت نفوسهم وايسوا الفرج، وأشتد بهم الحرمان. وفي رحلته من طوس الى بغداد سنة ٢٠٣ هـ قادته الى (الري) فاسقط عن أهلها الفي الف درهم مما فرض عليهم من الخراج[١٦١].

بهذه السياسة المالية الذكية وأمثالها أستطاع المامون أن يستل ضغينة الناقمين، ويزيل سخيمة الحاقدين. فهيأ فرصة نادرة للقضاء على ثورة رافع بن الليث من دون اراقة للدماء، وهي الثورة التي لم يستطع هارون الرشيد بأمواله وجنده أن يقضي عليها على الرغم من قيادته جيش الخلافة بنفسه، وكانت أحدى أسباب همه موته. لكن سياسة المامون عجلت بنهاية تلك الثورة ووضعت حدا لتبعاتها. ففي رواية الجهشياري (أنه لما راى رافع بن الليث سيرة المأمون أنقاد له، ودخل في طاعته في سنة أربع وتسعين ومئة فأعطاه الامان فصار اليه فاكرمه وخصه به)[١٦٢].

أصبح الخراج شغل الدولة الشاغل، ومشكلتها التي أستعصت على الحل طوال عصور الخلافة الأسلامية، وما الأصلاح الذي حدث خلالها سوى ترقيعا لوضع خرق أضر بالدولة وهيبتها، ودفعت الجماهير ثمنه باهظاً. وبوصوله الى بغداد عزم المامون على وضع حل جذري للمشكلة ينتظم الخراج خلالها، ويتنفس الناس صعداء نتائجها. ففي رواية الطبري أن المامون قرر تخفيض الخراج عن السواد (فامر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف)[١٦٣]. فخف الخراج عن اهلها، وحسنت بعض أوضاعهم المالية.

وروايات الطبري عن أستتباب الأمن، وانقطاع الفتن، وعودة الهدوء للمناطق التي أندلع فيها العصيان ، دليل قاطع على حسن السياسة المالية التي أنتهجها المامون تجاه الأمة وجماهيرها، وشهر عهده رخاءاً واضحاً، وزيادة في ثروة الامة تظهره قوائد الخراج التي قدرت موارد بيت المال بأكثر من أربعمائة الف الف درهم

أو تزيد[١٦٤].

تمتعت الأسرة الحاكمة في عهد المامون ومن لاذ بها وعمل تحت خيمتها بكل الوان الترف والسرف والنعيم. فاق ما هو موصوف، وجاوز ما هو معقول. وتتعدد الأمثلة في الروايات والنصوص بتعدد أحداثها ووقائعها. فقد انفق على زواجه من (بوران) أبنة الحسن بن سهل (خمسة وثلاثين الف الف الى سبعة وثلاثين الف الف درهم) [١٦٥].

وروايات الطبري تظهر الرجل مهوساً بالعطاء. مبدداً للمال غير أبه لشيء ما دام نال رضا قومه، وأسعد محبيه، وكسب ود سائليه. فهو يمنح محمد بن الجهم في كل بيت من الشعر في المديح والهجاء والمراثي كورة بخراجها[١٦٦]. ويعطي مائة الف درهم للحسين بن الضحاك الشاعر[١٦٧]. ووهب علي بن هشام واليه على كور الجبال واذربيجان وكور أرمينية أكثر من الف الف درهم[١٦٨].

وحين ولى سنة ٢١٣ هـ أخاه أبا أسحاق الشام ومصر، وولى أبن العباس بن المامون الجزيرة والثغور والعواصم، وامر لكل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر بخمسمائة الف دينار. وقيل أنه لم يفرق في يوم من المال قبل ذلك[١٦٩]. ونعته المنتفعون بأنه (أجود من السحاب الحامل الوريح العاصف) [١٧٠].

أما أخته ووالد زوجته (بوران) وصاحب اليد الطولى في المناطق التي سيطر عليها طاهر بن الحسين[١٧١]. فلم يبعد عن سيده في عطائه وهداياه، ولا أختلف عنه في جوده وكرمه وارحيته . وكان فيض يديه بحر غزير لا تعرف سوابغه، ولا تدرك أعماقه، حتى أصبح زواج أبنته مضرب الأمثال. واعجوبة العجائب فقد (خلع على القواد على مراتبهم، وحملهم وفصلهم. وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم)[١٧٢].

وأمر المامون للحسن بن سهل عشرة الألف الف من مال فارس، واطعمه الصلح. فجلس الحسن ففرقها في قواده وأصحابه وحشمه وخدمه)[١٧٣]. وفي رواية

المسعودي أنه (نثر الأملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط في جاهلية ولا أسلام)(١٧٤). هذا البذخ الذي جاوز الحد، وتعدى كل شيء، يقابله شح وتقتير على العامة من الناس، وسائر الجند الذين تقع عليهم مسؤولية حماية الأمة، وحدود الدولة، والدفاع عن البيضة. فقد كان يجري على الفارس منهم أربعين درهماً وعلى الراجل عشرين(١٧٥).

ميزت العائلة العباسية نفسها عن سائر الناس وضمت ما يزيد على ثلاثين الف كلهم يأخذ راتباً من دون سائر الناس(١٧٦). فلا عجب أن خلا بيت المال العام والخاص من الأموال نتيجة للترف والبذخ والاسراف.

ورواية الطبري تظهر عجباً لا مثيل له، وحالة لا يتقبلها عقل ولا يقرها منطق، فهو يذكر (أن المال قل عند المأمون حتى ضاق، وشكى الى اخيه أبي أسحاق المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين كأنك بالمال وقد وافاك بعد جمعه، وكان حمل الى المعتصم ثلاثون الف الف درهم من خراج ما يتولاه له، فلما ورد ذلك المال قال المأمون ليحيى أبن اكثم: وقع لآل فلان بالف الف، ولآل فلان بمثلها ولآل فلان بمثلها، فما زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين الف الف ورجله في الركاب، ثم أمر بأعطاء الى الجند) (١٧٧).

فالرجل لا يأبه لما يحدث، ولا يكترث لما يفعل مع رجاحة عقله، وسمو أخلاقه، فالأمة بحسبانه تؤدي ما يطلب منها لصاحب الملك، ولا خوف على بيت المال ما دامت بلدان الخلافة تؤدي لبغداد ما عليها، والا واجهت عواقب تمنعها.

أستغلت المناطق التي خضعت للدولة العباسية خلال عهد المأمون أبشع أستغلال، ولم يعد بأستطاعتها التخلص من قيودها المالية من دون أعلان العصيان على عمالها وولاتها، وهو عمل له ما بعده، ولا تضمن نتائجه. وأعجب ما في الأمر أن الديار المصرية تحملت عبئاً ثقيلاً، وتميزت عن غيرها بكثرة مطالب الخلافة، ونهب ولاتها، حين أرهق أصحاب الأرض بكثرة الضرائب وتنوعها من دون سبب

مقبول او عذر معقول ، وهو أمتداد لسياسة متواصلة لم تنقطع منذ قيام دولة بني العباس.

ففي سنة (٢١٣هـ) ولى المأمون أخاه المعتصم البلاد المصرية، فجعل على الخراج صالح بن شيرزاد فظلم الناس وزاد في خراجهم ، فأنتفض أهل الحوف وعسكروا معلنين ثورة عارمة قادها العرب من قيسية ويمانية لم تهدأ وتخف حدتها حتى قدوم المأمون اليها بنفسه(١٧٨). وكلفت خزانة بيت المال أضعاف ما حصلت عليه من مال، وكانت نتائجها بالغت الكلفة في الرجال، وقطعت صلة الهدوء بينها وبين عاصمة الخلافة.

بوفاة المامون (٢١٨)هـ ومجيء المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ) بدأ عهد جديد أختلف كل الأختلاف عن سابقه، ولا سبيل لموازنته بما كانت عليه دولة بني العباس في عهد المامون لآختلاف عقلية الرجلين وطبيعة نهجهما السياسي والفكري، الى جانب تبدل الأوضاع السياسية التي سادت أطراف الدولة العباسية بعد وفاة الأخير. وامست الدولة تساس بعقلية عسكرية لا سابق لها في الدولة العباسية، واصبحت غاية بيت المال أمداد المؤسسة العسكرية بالنفقات لآدامة عجلة الحرب، وغدت ايام المعتصم كما يصفها صاحب كتاب الفخري (أيام فتوح وحرب) (١٧٩).

لقد ساءت الأوضاع الجماهير الناس نهاية عهد المامون، وتفاقمت مشاكلها بأعلان العصيان والثورة على بغداد تارة، والالتحاق بالحركات السرية المناهضة للخلافة تارة أخرى.

ويستشف من رواية الطبري أن اول عصيان أندلع في هذه المناطق قادة (الزط) الذين عاثوا فساداً في طريق البصرة، واتسع تحركهم ليشمل مناطق واسط، وكان عصياناً سياسياً واقتصادياً حين (أحتملوا الغلات عن البيادر (بكسكر) وما يليها من البصرة، واخافوا السبيل)(١٨٠) . مما يدل على شدة أتساعها، ومدى التأييد الذي حصل عليه زعماؤهم . وشغلت المعتصم أكثر من تسعة أشهر . وكلفت بيت المال

مبالغ طائلة . لم يستطع القضاء عليها (حتى سدت جميع منافذ الأنهار. وأخذ عليهم طرقهم)[١٨١]. وبالغ قواده في القتل والتنكيل. وكان سبيهم سبعة وعشرين الف انسان[١٨٢].

وما أن انتهت مشكلة (الزط) وما صاحبها من تلف المناطق الزراعية وتدمير أراضيها، ونزوح أهلها وأصحابها عنها وهم بين قتيل وجريح واسير. حتى زج المعتصم جند الخلافة في مواجهة جديدة للقضاء على عصيان بابك الخرمي في نواحي (أذربيجان) . ففي سنة (٢٢٠ هـ) عقد المعتصم للافشين. أفضل قادته وأكثرهم خبرة ودراية على (الجبال) لمحاربة بابك وأنفق عليه أموالا لم تذكر المصادر مقدارها[١٨٣]. ثم أتبعه بمدد قاده (أيتاخ) وزوده (بثلاثين الف الف درهم عطاء للجند وللنفقات) [١٨٤]. وكوفئ الأفشين مكافأة جزيلة (حين توج وشاحين بالجواهر ووصله بعشرين الف الف درهم، ومنها عشرة الآف الف صلة، وعشرة الف الف درهم يفرقها في أهل عسكره. وعقد له على السند) [١٨٥]. بعد القضاء على بابك.

تواصلت حروب المعتصم وحملاته الحربية بلا انقطاع. وفتحت لها خزائن بيت المال وموارده. ولم يحل عام (٢٢٣ هـ) حتى أتبع ذلك بحملة على (عمورية) حين (تجهز جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب والة الحديد والنفط)[١٨٦]. ورواية المسعودي دليل آخر لما كلفته الحرب على الدولة البيزنطية في وقعة (عمورية) (فلم يكن يحصي الناس العدد. ولا يضبطون كثرة. فمن مكثر ومقلل فالمكثر يقول خمسمائة الف. والمقل يقول مائتي الف)[١٨٧]. ترى كم كلفت من الأموال؟ ومن هو دافعها. وعلى من وقع ثقلها. ومن هم الذين تحملوا أعباءها. ومن هم وقودها.

ودارت عجلة الحرب التي غدت هواية يتلهى بها المعتصم دورتها. باتجاه (طبرستان) لما عزم حاكمها (المازيار) على الخلاف سنة (٢٢٤ هـ) ودعا الناس الى البيعة. وامتنع عن دفع الخراج. مستغلا تردي الأوضاع . وكثرة مشاكل مركز الخلافة. اضطر المعتصم للاستعانة بقادته وجنده في طبرستان. وضم اليهم جمعا كثيفا من قبله

حتى استطاع القضاء على العصيان. لكن نتائجه كانت خلاف رغبة الحاكمين. حين اصبحت تربة خصبة لقيام دويلات وممالك بعيدة عن سلطة الخلافة والخضوع لسيطرتها، بل والأنفصال عنها.

أن أهم مشكلة خلقها المعتصم لدولة بني العباس وابعدها خطرا، وأسوأها أثراً استخدامه لأخواله الأتراك، والاعتماد عليهم بتكوين جيش أعتمد عليه كل الأعتماد. وان سبقه اخوه المامون من قبل حين سجل هؤلاء في الديوان(١٨٨)، واجرى عليهم الأرزاق.

غير أن المعتصم بالغ في اصطناعهم والاعتماد عليهم. واستخدامهم في مرافق دولته وحماية ملكه. بعد أن جلبهم من مناطق ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأشروسنه وأهل الشاس(١٨٩). وفي رواية المسعودي بلغ عددهم أكثر من أربعة الاف (فالبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبية والحلية والمذهبة وابانهم بالزي على سائر جنده)(١٩٠).

ولم يكتف المعتصم بأنشاء جيش جله من الاتراك والمرتزقة من مناطق مختلفة. لكنه أهمل العرب والتجأ الى التقليل من شأنهم ، والأعتماد عليهم. ففي عام ٢١٨هـ أسقط العرب من الديوان حين بعث الى عماله في الأمصار أن يسقطوا من دواوينهم من العرب، ويقطعوا العطاء عنهم، فشق ذلك على العرب وثاروا. وكان أهل مصر أوائل من أصابهم الحيف وشملهم هذا البلاء حين كتب الى عامله كيدر بن نصر (باسقاط من ديوان مصر العرب. وأقطع العطاء عنهم)(١٩١) فأندلع العصيان في الديار المصرية في كل مكان وقاد حموع الثائرين يحيى بن الوزير الجروي(١٩٢). وهم يرددون (هذا أمر لايقوم فينا أفضل منه. لأنا منعنا حقنا وفيئنا) (١٩٣).

ولم يستطع المعتصم القضاء على ذلك العصيان الا بجهد جهيد. كلف بغداد أنفساً وأموالاً طائلة، وشغلها عاما كاملا بغية أعادة الهدوء الى تلك الربوع. لكنه هدوء أخفى تذمراً وأستياء كانت له نتائج بعيدة المدى بين الخلافة العباسية وسكان

وادي النيل .

والمتتبع للأحوال الأقتصادية في مصر طيلة العصر العباسي الأول تدهشه أوضاع مزرية عانى منها المصريون سداها الجور . ولحمتها الأجحاف . وهي ابعد ما تكون عن روح الثورة والمبادئ التي وعد العباسيون بتحقيقها . وقوامها العدل والأنصاف. لكنهم لم يعرفوا عدلاً، ولم ينالوا انصافاً بفضل ضرائب فادحة تساقطت عليهم كالطاعون. فلم يعد بالمستطاع سبيلاً للخلاص، وغدا تاريخ الديار المصرية خلال العصر العباسي الأول سلسلة صراع ونزاع مسلح لم يهدأ حتى مجيء الطولونيين(١٩٤) .

مصادر البحث :

أبن تغري بردي : النجوم الزاهرة. القاهرة ١٩٢٩.

أبن عبد ربه: العقد الفريد. القاهرة ١٩٥٣.

أبن الطقطقي: الفخري في الأداب السلطانية- بيروت. ١٩٦٠.

أبن قتيبة: الامامة والسياسة. مصر

أبو يوسف: الخراج. المطبعة السلفية- مصر ١٣٨٢.

البلاذري: فتوح البلدان. مطبعة السعادة- مصر ١٩٥٩.

الجهشياري: الوزراء والكتاب. القاهرة ١٩٣٨.

الدينوري: الأخبار الطوال:. مطبعة السعادة. مصر ١٣٣٠.

السيوطي: تاريخ الخلفاء. القاهرة ١٩٦٤.

الطبري: تاريخ الطبري. دار المعارف- القاهرة ١٩٦٤.

الكندي : الولاة وكتاب القضاة - بيروت ١٩٠٨.

الماوردي: الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٦٠.

المسعودي: مروج الذهب. القاهرة ١٩٥٨.

المقدسي: أحسن التقاسيم. ليدن ١٩٠٦.

المقريزي: المواعظ والأعتبار في ذكر الخطط والآثار. بولاق. مصر

النرشخي: تاريخ بخارى. دار المعارف. مصر.

اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي. النجف. ١٩٦٤.

محمد كرد علي: رسائل البلغاء. القاهرة ١٩٤٦.

الهوامش :

(١) الطبري : تاريخ الطبري ٦ / ٥٦٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٧ / ٣٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ .

(٣) الطبري ٧ / ٤٥٨ ، ٧ / ٤٥٩ .

(٤) الطبري ٧ / ٤٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ٧ / ٤٢٥

(٦) الطبري ٧ / ٤٢٦ .

(٧) المصدر نفسه : ٧ / ٤٥٧ .

(٨) الطبري ٧ / ٤٥٨ .

(٩) يروي الطبري ٧ / ٤٣٢ نصا فريدا ذا صلة بالرؤى والمنامات التي سادت آنذاك ، وتردد صداه في أجواء بلاد الشام بعد زحف المسودة التي قادت الثورة العباسية باتجاه العراق وبلاد الشام . إن نهاية المسودة لن تتعدى منطقة الزاب . وهو المكان الذي أخفقت فيه القوات الشامية ضد الزحف القادم من مناطق المشرق ولم يدر بخلدهم إن ذلك انما كان زاب المغرب (على مبعدة من قسنطينة بالبلاد الجزائرية) وليس زاب العراق .

(١٠)الطبري ٧ / ٤٢٨ .

(١١)الطبري ٧ / ٤٣٥ .

(١٢)الطبري ٧ / ٣٧٩ .

(١٣)الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٨٥ ، ٨٧ .

(١٤)الطبري ٧ / ٣٩١ .

(١٥)الطبري ٧ / ٤٠٦ .

(١٦)الطبري ٧ / ٣٧٧ . أصاب جرجي زيدان كبد الحقيقة بقوله : ((ولأبي مسلم فضل في تأسيسالدولة العباسية اعظم من فضل عمرو بن العاص في خلافة معاوية . لأن عمرو بن العاص انتصر برأيه . وأما ابو مسلم فانه نصر العباسيين بسيفه . جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ١ / ٨٨ .

(١٧)الطبري ٧ / ٣٤٢ .

(١٨)الوزراء والكتاب ص ٨٧ .

(١٩)الطبري ٨ / ٨٩ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ٤ / ٩٩ .

(٢٠)كان ابو جعفر المنصور عاملا لسليمان بن حبيب المهلبي أيام الأمويين . اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ٣/١٢٧ وانظر المسعودي مروج الذهب ٣ / ٢٩٨ .

(٢١)مروج الذهب ٣ / ٣١٨ .

(٢٢)تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٢٦ .

(٢٣)تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٢٢ تاريخ الطبري ٨ / ٢٥ ، ٢٦ .

(٢٤)مروج الذهب ٣ / ٣١٨ .

(٢٥)تاريخ الطبري ٧ / ٦١٩ .

(٢٦)تاريخ الطبري ٧ / ٦٥٥ ، المقدسي : احسن التقاسم ص ١٢١ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١ / ٦٩ .

(٢٧)في رواية الدينوري ((إن ابا جعفر أحب إن يبني لنفسه وجنوده مدينة ليتخذها دار المملكة فخط لنفسه وحشمه ومواليه وأهل بيته المدينة . وسماها دار السلام)) الاخبار الطوال ص ٣٢٦ .

(٢٨)تاريخ الطبري ٨ / ٢٥ .

(٢٩)المصدر نفسه ٨ / ٢٦ .

(٣٠)قطيعة ريسانة تقع قرب باب الشعير من غربي بغدا . ياقوت : معجم البلدان .

(٣١)باب المحول : بليدة حسنة طيبة نزهة بينها وبين بغداد فرسخ، معجم البلدان ٥ / ٦٦.

(٣٢)الوزراء والكتاب ص ١٣٧.

(٣٣)الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣٦١

(٣٤)يذهب ابن خلدون إلى إن الملك مبني على اساسين لا بد منهما . فالاول الشوكة والعصبية . وهو المعبر عنه بالجند . والثاني المال . وهو قوام اولئك الجند واقامة ما يحتاج إليه الملك من الاحوال . والخلل إذا طرق الدولة طرقها من هذه الأساسين . المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣٥)تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٣٦ .

(٣٦)الوزراء والكتاب ص ١١٣ .

(٣٧)المصدر نفسه ص ١٠٩ .

(٣٨)تاريخ الطبري ٨ / ٩٨ .

(٣٩)المصدر نفسه ٨ / ٩٩ .

(٤٠)أنظر مقدمة كتاب الوزراء والكتاب

(٤١)الوزراء والكتاب ص١٣٣ .

(٤٢)تاريخ الطبري ٧ / ٤٢٣ ؛ ٨ / ٤١ .

(٤٣)الوزراء والكتاب ص ٩٧ .

(٤٤)المصدر نفسه ص ١١٨ .

(٤٥)الوزراء والكتاب ص ١١٧ .

(٤٦)أحسن التقاسيم ص ٣٤٣ .

(٤٧)تاريخ الطبري ٧ / ٥٠٧ .

(٤٨)مروج الذهب ٣ / ٣٠١ .

(٤٩)سميت (رسالة الصحابة) وليس يعني صحابة رسول الله (ص) وانما على صحابة الخلفاء والولاة . والمقربين منهم ومستشاريهم وموضع أسرارهم .

(٥٠)محمد كرد علي : رسائل البلغاء ص ١١٧ .

(٥١)محمد كرد علي : رسائل البلغاء ص ١٢٣ .

(٥٢)محمد كرد علي : رسائل البلغاء ص ١٢٩ .

(٥٣)الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

(٥٤)محمد كرد علي : رسائل البلغاء ص ١٧٢ .

(٥٥)رسائل البلغاء ص ١٢٣ .

(٥٦)تاريخ الطبري ٨ / ٧٦ .

(٥٧)الاحكام السلطانية ص ١٦٨ .

(٥٨)فتوح البلدان ص ١٦٨ .

(٥٩)الوزراء والكتاب ص ١٤٢ .

(٦٠)رسائل البلغاء ص ١٣٢ .

(٦١)تاريخ الطبري ٨ / ٨١ . وفي رواية الجهشياري اقطع ابنه صالح ضيعه بالبصرة . صرف عليها ثلثمائة الف درهم . واتخذ له بيت مال خاص لادارتها . الوزراء والكتاب ص ١١٧- ١١٨ .

(٦٢)الدينوري : الاخبار الطوال : ص ٣٦٠ .

(٦٣)ابن قتيبة الدينوري : الامامة والسياسة ٢ / ١٥١

(٦٤)تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٣٣ .

(٦٥)السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٥ .

(٦٦)الامامة والسياسة : ٢ / ١٥٦ .

(٦٧)المصدر نفسه : ٣ / ١٥٨ .

(٦٨)المصدر نفسه : ٣ / ١٥٩ .

(٦٩)تاريخ الطبري ٧ / ٣٠٤ ، الاصفهاني : الاغاني ١٠ / ٢٣٦ .

(٧٠)الامامة والسياسة : ٢ / ١٥٧ .

(٧١)تاريخ بغداد : ص ٢٦٠ .

(٧٢)تاريخ الطبري : ٨ / ١١٤ .

(٧٣)المصدر نفسه ٨ / ١١٤ .

(٧٤)الوزراء والكتاب ص ١٤٣ .

(٧٥)مروج الذهب ٣ / ٣٢٢ .

(٧٦)الوزراء والكتاب ص ١٥٨ .

(٧٧)مروج الذهب ٣ / ٣٢٢ .

(٧٨)المصدر نفسه ٣ / ٣٢٢ .

(٧٩)الوزراء والكتاب ص ١٥٩ . وعيساباذ: محلة كانت بشرقي بغداد منسوبة الى عيسى بن المهدي، وكانت اقطاعا له، وبنى بها المهدي قصره الذي سماه قصر السلام. معجم البلدان .

(٨٠)مروج الذهب ٣ / ٣٢٢ .

(٨١)تاريخ الطبري ٨ / ١٥٣ .

(٨٢)ابن الجوزي المنتظم ٥ / ١٨٨ .

(٨٣)الوشاء: الموشى ص ٣٤ .

(٨٤)الوزراء والكتاب ص ٢٢١ .

(٨٥)تاريخ الطبري ٨ / ١٣٣ .

(٨٦)المصدر نفسه ٨/ ١٣٣.

(٨٧)تاريخ اليعقوبي ٣/ ١١٠.

(٨٨)ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٤٥.

(٨٩)ابن الطقطقي : الفخري في الاداب السلطانية ص١٤٦ .

(٩٠)المصدر نفسه ص ١٤٦.

(٩١)البلاذري : فتوح البلدان ص٢٧١ .

(٩٢)المصدر نفسه ص٢٧١ .

(٩٣)الاحكام السلطانية ص١٧٦ .

(٩٤)في رواية ابن خرداذبة : جبى عمر بن الخطاب السواد مائة الف الف وثمانية وعشرين الف الف درهم ، وجباه الحجاج بن يوسف ثمانية عشر الف الف درهم ، ليس فيها مائة الف الف وذلك لعسفه وخرقه وظلمه . المسالك والممالك ص١٤ .

(٩٥)رسائل البغاء ص١٣٢ .

(٩٦)تاريخ اليعقوبي ١٣٢/٣ .

(٩٧)تاريخ الطبري ١٥٦/٨ .

(٩٨)تاريخ الطبري ١٨٧/٨ .

(٩٩)تاريخ الطبري ٢٢١/٨ ، مروج الذهب ٣٣٥/٣ ، الفخري ص١٥٢ .

(١٠٠)تاريخ اليعقوبي ١٤٢/٣ .

(١٠١)تاريخ اليعقوبي ١٤٢/٣ ، تاريخ الطبري ١٨٨/٨ .

(١٠٢)مروج الذهب ٣٠٨/٣ ، استطاع ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ان يفر الى المغرب الاقصى حيث نجح في تأسيس دولة جديدة تعرف بالادارسة امتدت بين عامي ٣٧٥/١٧٢هـ .

(١٠٣)تاريخ الطبري ٨/٢١٠ .

(١٠٤)الوزراء والكتاب ص١٦٩ .

(١٠٥)الوزراء والكتاب ص١٦٩ .

(١٠٦)تاريخ الطبري ٨/٢٢٦ .

(١٠٧)المصدر نفسه ٨/٢١٥ .

(١٠٨)تاريخ الطبري ٨/٢٣٣ ، مروج الذهب ٣/٣١٤ ، الوزراء والكتاب ص١٧٧ .

(١٠٩)مروج الذهب ٣/٣١٤ .

(١١٠)مروج الذهب ٣/٣٤٨ .

(١١١)تاريخ بغداد ١/٧٠ .

(١١٢)مروج الذهب ٣/٣٤٨ .

(١١٣)المصدر نفسه ٣/٣٤٨ .

(١١٤)الشابشتي : الديارات ص١٥٧ .

(١١٥)الابشيهي : المستطرف ص٩٠ ، الوشاء : الموشى ص٢٥ .

(١١٦)الاصفهاني : الاغاني ١٦/٣٤٢ .

(١١٧)الوزراء والكتاب ص٢٣٣ .

(١١٨)تاريخ الطبري ٨/٣٥٧ ، مروج الذهب ٣/٣٧٦ ، تاريخ الخلفاء ص٢٩٣ .

(١١٩)تاريخ الطبري ٨/٢٥٩ .

(١٢٠)المصدر نفسه ٨/٢٥٩ .

(١٢١)المصدر نفسه ٨/٢٥٩ .

(١٢٢)المصدر نفسه ٨/٣٢٤ .

(١٢٣)المصدر نفسه ٨/٣٢٥ .

(١٢٤)تاريخ الطبري ٨/٣٢٥

(١٢٥)ابن الفقيه الهمداني : البلدان ص٢٨٢ .

(١٢٦)الوزراء والكتاب ص٢٠٦ .

(١٢٧)التنوخي : الفرج بعد الشدة ٢/١٧ .

(١٢٨)مروج الذهب ٣/٣٧٣ .

(١٢٩)البلاذري : فتوح البلدان ٣٢٩ .

(١٣٠)الوزراء والكتاب ص٢٨٩ .

(١٣١)تاريخ الطبري ٨/٣٢٠ .

(١٣٢)الوزراء والكتاب ص٢٨١ .

(١٣٣)كتاب الخراج ص١٠٧ .

(١٣٤)تاريخ اليعقوبي ٣/٤٢٥ . النرشخي : تاريخ بخاري ص٦٢ .

(١٣٥)تاريخ الطبري ٧/٤٢٤ .

(١٣٦)ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١/٨٨ .

(١٣٧)المقريزي : الخطط والآثار ١/٨٠ .

(١٣٨)المصدر نفسه ١/٨٠ .

(١٣٩)المصدر نفسه ١/٨٠ .

(١٤٠)المصدر نفسه ١/٨١ .

(١٤١)تاريخ الطبري ٨/٣١٩ ، ٣٤٢ .

(١٤٢)الوزراء والكتاب ص٢٢٨ .

(١٤٣)الوزراء والكتاب ص١٦٩ .

(١٤٤)تاريخ الطبري ٨/ ٤٥٦. وانظر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٠٠.

(١٤٥)البيهقي : المحاسن والمساوئ ص٨٦ .

(١٤٦)الوزراء والكتاب ص٢٩٣ .

(١٤٧)الوزراء والكتاب ص٣٠٠ .

(١٤٨)تاريخ الطبري ٨/٥٠٩ .

(١٤٩)المصدر نفسه ٨/٥٠٤ .

(١٥٠)ابن عبد ربه : العقد الفريد ٥/١١٩ . ما من شك ان المبالغات لاحقت سرف الامين وتبديده للثروة واضافت ما عندها من قصص وحكايات لا اساس لها من واقع .

(١٥١)تاريخ الخلفاء ص٢٩٨ .

(١٥٢)الوزراء والكتاب ص١٩٩ .

(١٥٣)تاريخ الطبري ٨/٣٧٤ .

(١٥٤)تاريخ الطبري ٨/٣٦٥ .

(١٥٥)مروج الذهب ٣/٤٠٩ .

(١٥٦)المصدر نفسه ٣/٤١١ .

(١٥٧)المصدر نفسه ٣/٤١٨ .

(١٥٨)مروج الذهب ٣/٤١٩ .

(١٥٩)يقول ابن الطقطقي : كان المأمون افضل خلفائهم وعلمائهم وحكمائهم وحلمائهم . وكان قطنا شديدا . الفخري ص١٧٥ .

(١٦٠)الوزراء والكتاب ص٢٧٩ .

(١٦١)تاريخ الطبري ٨/٥٦٨ .

(١٦٢)الوزراء والكتاب ص٢٧٩ .

(١٦٣)تاريخ الطبري ٨/٥٧٦ .

(١٦٤)الوزراء والكتاب ص٢٨١ .

(١٦٥)تاريخ الطبري ٨/٦٥٢ ، مروج الذهب ٤/٣٠ .

(١٦٦)المصدر نفسه ٨/٦٦٥ .

(١٦٧)المصدر نفسه ٨/٦٦٢ .

(١٦٨)المصدر نفسه ٨/٦٢٨ .

(١٦٩)تاريخ الطبري ٨/٦٢٠ .

(١٧٠)المصدر نفسه ٨/٦٥٣ .

(١٧١)ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٣٩٠ .

(١٧٢)تاريخ الطبري ٨/٦٠٨ .

(١٧٣)المصدر نفسه ٨/٦٠٨ .

(١٧٤)مروج الذهب ٤/٣٠ .

(١٧٥)تاريخ الطبري ٨/٦٣١ .

(١٧٦)النجوم الزاهرة ١/١٧٨ .

(١٧٧)تاريخ الطبري ٨/٦٥٢ .

(١٧٨)النجوم الزاهرة ١/٢٠٦ .

(١٧٩)ابن الطقطقي : الفخري ص١٨٦ .

(١٨٠)تاريخ الطبري ٩/٨ . وفي رواية اليعقوبي ان الزط وثبوا بين البصرة وواسط وقطعوا الطريق ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٠٦ وفي رواية الطبري ٩/٨ ، استمرت ثورة الزنج تسعة اشهر .

(١٨١)تاريخ الطبري ٩/١٠ .

(١٨٢)المصدر نفسه ٩/١٤ .

(١٨٣)تاريخ الطبري ١٤/٩ .

(١٨٤)المصدر نفسه ٢٩/٩ .

(١٨٥)المصدر نفسه ٥٥/٩ .

(١٨٦)تاريخ الطبري ١٨/٩ . وفي رواية الفضل بن مروان (انه لم يكن للمعتصم لذه في تزيين البناء ، وكانت غايته فيه الاحكام ، ولم يكن بالنفقة على شيء اشمح منه بالنفقة في الحرب) . تاريخ الطبري ١٢١/٩ .

(١٨٧)مروج الذهب ٦٠/٤ .

(١٨٨)تاريخ الطبري ٨٠/٩، ٨٥ .

(١٨٩)فتوح البلدان ص٤٢٠ .

(١٩٠)مروج الذهب ٥٣/٤ ، وقيل ثمانية الاف او يزيدون (النجوم الزاهرة ٢١٣/٢) .

(١٩١)الكندي : الولاة وكتاب القضاة ص١٩٣ ، المقريزي : الخطط ١٩٤ .

(١٩٢)تاريخ اليعقوبي ١٩٤/٣ ، الولاة وكتاب القضاة ص١٩٢ .

(١٩٣)النجوم الزاهرة ٢٢٩/٢ ، الخطط ٩٥/١ .

(١٩٤)انظر الكندي: الولاة وكتاب القضاة ص٩٠، النجوم الزاهرة ١٣٥/٢، ١٤٤ ، ٢٣٣ .